

كولن ولسون

الجنس

9

الشباب
الذكرى

ترجمة
أحمد عمر شاهين

كولن ولسون

الجنس
9
الشباب
الذكي


ترجمة
أحمد عمر شاهين



مركز
الدراسات
العربية
للاعلام والنشر

الجنس والشباب الذكى

تأليف : كولن ولسون
ترجمة : أحمد عمر شاهين

الناشر :  مركز
الإصدار العربي
للإعلام والنشر : الجمع والصف الالكتروني

٤ شارع العلمين - ميدان الكيت كات - جيزة

ت : ٣٤٤٨٣٦٨

رقم الإبداع : ٩٦/٥١٣٦

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977-5121-85-X

الجنس والشباب الذكي
ترجمة كتاب

Sex & Intelligent Teenager

By Colin Wilson

Arrow Books 79 G.B

ترجمة : أحمد عمر شاهين

تقديم

تساءل الكاتب الإنجليزي " تشيسترتون " ذات يوم " لماذا يمتلئ العالم بأطفال اذكاء وكبار فاشلين "؟.

ومن خبرتي الشخصية، أرى أن بؤادر الفشل تبدأ فى العشرينات من العمر، وتتصاعد حتى تخنق الذكاء الحقيقى والتعاطف مع الآخرين، عند سن الثلاثين.

سنوات الشباب الأولى سنوات صعبة، لأنها تشهد المعركة الحقيقية بين النبوغ والضحالة، وفي العادة تفوز الضحالة.

اعتاد أحد أعمامي أن يؤكد لي أن من هو دون الثلاثين، لا يمتلك المنطق والإدراك السليم للأمور. كان رجلاً حلو المعشر، وشخصية لطيفة، لكن كل ما يؤمن به كان يجعلني أرتجف فزعاً: العناد، المعرفة بالعالم، والإدراك السليم. (حين كبرت أدركت أن كثيراً من معلوماته كانت زائفة). اعتدنا أن نتناقش طويلاً حول الحياة والخيال، وكان يجعلني أشعر دائماً بأنني غبي وقليل الخبرة. أسوأ ما في الأمر أن جزءاً معيماً في داخلي كان في صفه، ويدرك أن العالم مكان صعب وقاس ولا وقت فيه لأحلام اليقظة. ولكن ظلت هناك نزعة تقاوم هذه الحكمة الفائقة وترى أن العالم إذا كان بالشكل الذي يصوره عمي.. فالأفضل أن أنتحر.

لكن ما كان يقوله يجد صدى لدى كثير من الشباب الذين تحدثت إليهم. فلا يوجد من هو في سن الخامسة عشر ويعرف شيئاً عن العالم أو الحياة، وأن جميع من هم تحت العشرين يُعتبرون أفضل قليلاً من الأغبياء، وأنهم حين يصلون إلى الثلاثين سينظرون إلى شبابهم المبكر بابتسامة ساخرة. وكنت أناقش نفسي محققاً، وتأتي إجابته دائماً: سترى الأشياء مختلفة حين تكبر. ولقد كبرت، ويسعدني أن أقول أن كل كلام عمي كان جملة من الأكاذيب، وكنت مغفلاً بأنني تأثرت بما كان يقول.

الكبار عادة، في حيرة في حياتهم، مثل الشباب، لكنهم أقدر من الشباب على إخفائها، لقد انتهى الأمر وعرف الحكاية وبيذل جهده لنسيانها، وبعضهم يختار في هذا النسيان.

صحيح أن لكبر السن مزايا معينة، فالتعامل مع العواطف يغدو أسهل، والإرتباك والحيرة أقل، ولا يثيران الإهتمام بدرجة كبيرة.

في شبابي مثلاً، كان أكثر ما يثيرني "ويقلقني" أن أتحدث إلى شخص ما فلا يصغي أو يتجاهلني، وأحد نفسي احمر خجلاً حتى أغدو كإشارة المرور، وأن كل شخص في الغرفة ينظر نحوِي. الآن أجد أن ذلك الأمر لا يزعجني ولا يهمني كثيراً. كذلك كان النقاش مع شخص غبي يغمرنِي بالقلق، وإذا اتهمني بأشياء أعرف أنها تافهة، فإن جزءاً ما بداخلي يبدأ في التساؤل ما إذا كان هناك حقيقة فيما يقوله.

ما زال الأغبياء يسبون لي القلق، لكن فقط إذا احتكوا بي أو هاجموا كتبتي، لكن لم يعد لهم تلك القوة الشريرة التي كنت أحس بها وتورقني.

هناك شيء واحد أود أن أؤكد: الناس لا تغدو أعقل أو أكثر حكمة حين تكبر، بل ربما يصبحون أكثر غباءً. إنهم يتعلمون كيف يخفون شكوكهم بالتصرف كالآخرين أو بالتلفظ بإصطلاحات عادية، وأحياناً بالإغراق في الخمر للشعور بالثقة في النفس. عالم الكبار خدعة ضخمة مقنعة. وهم بهذا يخدعون أنفسهم بالدرجة نفسها التي يخدعون بها الآخرين.

يبدو فى كلامي نوع من التجاوز وعدم الإنصاف، فهناك الكثير من الكبار الأذكياء والمتسامحين الطيبين، لكن ذلك ليس مأمّهدف إليه. الشباب والأطفال يمتلكون أشياء فقدتها معظم الكبار تماماً بلا أمل فى استعادتها، فقد وصل الكبار إلى قبول نوع معين من الهزيمة وتصالحوا معها. وكانت هذه أحد الأشياء التي تحيرني وأنا طفل وأنا لم أر شخصاً كبيراً أود أن أكون مثله، وكان ذلك إحساساً غريزياً سليماً، فالآن وأنا كبير مازلت لا أرى مثلاً يُحتذى من الكبار وأود أن أكون مثله، كلهم يبدون لي أناساً عاديين متوسطين يستحقون الرثاء.

من ناحية أخرى، بصفتي كاتباً، فأنا أذهب غالباً لإلقاء محاضرات فى المدارس والجامعات، ولذا فأنا على إتصال بأعداد لا بأس بها من الشباب، وأجد فى ذلك دائماً تجربة مفيدة. بالطبع هناك شباب أغبياء بالدرجة نفسها التي يوجد بها كبار أغبياء، وعلى كل حال فهم لن يقرأوا هذا الكتاب.

جميع الشباب الأذكياء يتشابهون فى شئ واحد: فهم يجدون الحياة جميلة وقاسية، ويعيشون فى مشكلة محيرة متشابكة من العواطف تجعلهم أحياناً مفككين غير مترابطين، ولكن تحت هذا الظاهر هناك بركان من النشاط العقلي يحاول أن يشق طريقه ويخرج إلى ضوء النهار، ولسوء الحظ، فإن عليهم أن يواجهوا مؤامرة الكبار عليهم، بالإضافة إلى مشاكلهم العاطفية الخاصة.

وكلما زاد غباء الكبار، حاولوا أكثر أن يؤثروا عليك بسلطتهم، وكلما أكدوا لك أن مشاكلك العاطفية سببها صغر سنك وقلة خبرتك، فمن الأفضل ألا تجادلهم، لأنك ستسبب لهم التعاسة. ولكن يجب عليك أن تعلم أنه كلما ازداد غباء المرء احتاج لإثبات سلطته بدرجة أكبر. (وهذه معلومة مجانية لمن ساء حظه وعمل فى القوات المسلحة).

ومن أغرب الأمور أن معظم الكبار قد نسوا ماكانوا عليه أيام الشباب حتى أنهم يحسدون الشباب. نسوا المشاكل التي لا تنتهي، والحيرة البائسة والشعور المزعج أن تنحصر بين عالمين: الطفولة والمراهقة دون أن تنتمي لأحدهما. يقرأون فى صحفهم عن الحفلات التي يقيمها الشباب طوال الليل وتدور فيها المعاكسات الجنسية، فيتخيلون أن حياة الشاب هي سلسلة طويلة من الرقص والمرح والجنس.

أتذكر حفلة ذهبت إليها منذ عدة سنوات حيث كانت أعمار الضيوف تتراوح بين السادسة عشر والستين. وانقسم الضيوف إلى قسمين، من هم فى الخامسة والعشرين فأقل، ومن هم فوق الخمسين. معظم الكبار غادروا الحفل مبكرين - قبل منتصف الليل - لم يحدث شئ فى الحفل سوى أن فتاة قد سكرت فخلعت "جونلتها"، النتيجة أن من هم فوق الخمسين ظلوا حتى الرابعة صباحاً يكاد يقتلهم النعاس، على أمل أن يروا حفلة جنسية تبدأ فى أي وقت. وبدوا جميعاً وقد أصابهم الإعياء وخيبة الأمل حين جرّوا أنفسهم أخيراً مع بقيتنا دون أن يحدث شئ مما توقعوه. (أحياناً تحدث بعض الأشياء المنافية للأدب فى الحفلات لكن ليس بالدرجة التي يعتقدونها الكبار).

لكني مازلت لم أوضح الهدف الأساسي الذي أسعى إليه.

معظمنا يمتلك شخصية مستقلة خاصة به، ومالا نعرفه أن هذه الشخصية تتصرف - تقريباً بشكل كامل - مقلدة الآخرين ومقتدية بهم.

كثيرون قد يتصرفون بطريقة شخص يعجبون به - أذكر تلميذاً في المدرسة بدأ يمشي بشكل غريب مقوساً ساقيه مقلداً نجماً سينمائياً يحبه من رعاة البقر - لكننا مازلنا نعتقد أن شخصيتنا هي ملكنا، لكن كل شيء نقوله أو نفعله أو حتى نفكر فيه مستعار من الآخرين، ابتداءً من طفولتنا المبكرة.

من الصعب أن نصدق ذلك، لكنه صحيح.

هناك مثلاً، بعض الحالات المؤثرة لأطفال نشأوا وسط الذئاب والقرود، لكنهم لم يكبروا ليصبحوا متفوقين كطرزان مثلاً، بالرغم من أسرهم وهم في سن صغيرة، فقد ظلوا ذئاباً أو قروداً بقية حياتهم.

وقد تتبع سير وليم سيلمان مثل هذه الحالات في الهند سنة ١٨٤٩، وقد أخبره أحد الجنود انه رأى قرب "كاندور" ذئباً كبيراً يتجه إلى النهر ليشرب، يتبعه ثلاثة جراء وولد، وحاولوا أن يفصلوا الولد عن الذئاب، إلا انه جرى بسرعة كبيرة، ولكنهم استطاعوا أسره أخيراً. وحسب تقرير "سيلمان" فقد كان مظهره مقرفاً وكريها وعاداته قدرة، في البداية لم يأكل سوى اللحم النيء والعظم، وتعود أخيراً على أكل الخبز، لكنه لم يرغب في ارتداء الملابس، وحين أعطوه لحافاً ليتغطى به مزقه قطعاً وأكل جزءاً منه. كما كان يأكل مع الكلاب ولم يطور عادات إنسانية، ولم يتكلم أبداً، إلا قبل دقائق من وفاته بعد ثلاث سنوات من أسره، حين قال أن رأسه يؤلمه وطلب أن يشرب.

ويذكر التقرير نفسه حالة فتاة في التاسعة من عمرها، وُجدت وسط القرود، وأصبحت فردة من كل النواحي.

وحين يدقق الآباء والأمهات فسيلاحظون الأشياء نفسها على أطفالهم وهم صغار، فكل كلماتهم وأفعالهم وسلوكهم هي تقليد للأبوين، قد يبدو الطفل للآخرين بأن له شخصية مستقلة لكن الأبوين يعرفان أكثر.

والطفل الذي ينشأ في عزلة تامة، دون اتصال بمخلوقات أخرى، سيصبح عيباً في سن الخامسة لأنه لا يوجد من يقلده أو يقتدي به.

وهذا أمر شديد الأهمية، لأنه يعني أن شخصيتك وقدراتك ترجع كليةً إلى المحيطين بك. أنت لا تتعلم فقط لغة والديك أو تقتدي بتصرفاتهم، لكنك تتعلم أيضاً أن ترى العالم من خلال عيونهما، مهما كانت درجة اختلافك عنهما أو معهما، وكأنهما قد وضعا نظارة سوداء على أنفك تظل ثابتة هناك بقية عمرك.

هل تذكر الأحاسيس التي كانت تتناوب في العيد وأنت طفل صغير؟ وبهجة التحول في المحلات الكبيرة المملوءة بالملابس والمأكولات، والفرحة التي تعم الجميع؟ وهل تتذكر جمال كتب الأطفال بصورها ومناظرها الطبيعية وجبالها؟ والضيق الشديد الذي كنت تشعر به حين يحين موعد العودة إلى المدرسة في بداية العام الدراسي الجديد؟.

وأنت طفل كنت ترفض العالم الملل الذي يقضي به الكبار حياتهم، ترفضه لأن غريزة عميقة داخلتك تخبرك بأن الحياة لا يمكن أن تكون موحشة ومملة كنظرة والديك إليها. كان عمي سيقول لك أن كل هذا مجرد هروب وأن عليك أن تواجه الواقع. وسيقول لك ذلك معظم الكبار، ولكن إذا كنت ذكياً فلن تصدقهم. إنهم يعتقدون أن الحياة مملة ومقبضة بسبب النظارات السوداء التي وضعها آباؤهم على أنوفهم. كانوا يعرفون الحياة بشكل أفضل وهم أطفال، وكان لديهم تلك الرؤية المبهجة في الأعياد، أو عند قراءة قصة مغامرات، ثم كبروا ونسوا ذلك، ولم يخامرهم الشك أنهم ينظرون إلى الحياة عبر منظار أسود.

هل فهمت ما أقصده؟.

تخيل لو كنت كلباً تستلقي على سجادة صغيرة تحلق في الآدميين في غرفة الجلوس، لو نشأت وسط الكلاب فسترى المشهد من خلال رؤيتهم له. لو فرغت ذهنك من كل شيء ونظرت حولك في الغرفة دون التفكير في أي شيء فستحصل على فكرة غامضة عما يراه الكلب حوله.

وهذا الكتاب الذي تقرأه سيبدو آنذاك مجرد شيء آخر مثل المنضدة أو المدفأة، باختصار العالم لا معنى له بالنسبة لكلبك، لأن الكلب لم يتعلم كيف ينظر إلى العالم.

المعنى... هو شيء لا بد أن تتدرب عليه حتى يمكنك أن تراه.

ونحن لسنا بأفضل بكثير من الكلاب، فالعالم يبدو لنا بلا معنى أكثر بكثير مما هو في الواقع. ولو نشأت في رعاية رجل سوبرمان، فإن الغرفة نفسها التي تجلس فيها الآن ستدهشك بجمالها وإثارتها، وستبدو لك الحياة كما كنت تراها في العيد وأنت صغير.

لكن ما علاقة كل هذا بالجنس؟.

علاقة كبيرة جداً فلا يمكننا فهم الجنس دون الإقتراب منه بهذه الطريقة.

قد تشتري كتاباً في الجنس مثل الكتاب الذي أعده "كينزي" عن "السلوك الجنسي للأنثى" وتتعلم منه بعض الحقائق الطريفة عن ممارسة الجنس قبل الزواج في أمريكا، أو قد تشتري "دائرة معارف المعرفة الجنسية" وتكتشف بعض المعلومات عن العادات الجنسية عند سكان جزر البحار الجنوبية مثلاً، كل ذلك يعطيك بعض المعلومات الجنسية وليس معرفة جنسية عن الجنس الذي لم تعرفه بعد.

من ناحية أخرى، قد تشتري كتاب "باربارا كارتلاند" عن "الجنس والشباب" وتقرأ فيه هذه الفقرة "أملك هي ألطف الفتيات اللواتي عرفتهن. حاول أن تجربها كم هي رائعة، وأنها تعني إليك الكثير، قل لها أنني أحبك وهي ستمد لك يد المساعدة في عملية النمو. كان ونستون تشرشل أحد أعظم رجال القرن العشرين، ييكي غالباً حين يتأثر بشكل ما، ولم يكن يخجل من ذلك، لماذا إذن نخجل من إظهار مشاعرنا؟".

لست متأكداً لمن تكتب هذه السيدة، ولكنني لم أقابل شخصاً مأفوناً وغيباً يأخذ كلامها بشكل حدي كل كلامها هذا ليس له علاقة بالجنس أو مشاكله.

الجنس هو أحد أقوى الرغبات التي يجربها الإنسان، إنه يقودنا ويسيطر على حياتنا، بل والأكثر من ذلك، فإن الشباب إذا فقد القدرة على الإستمتاع بالأعياد كما يحدث وهم أطفال، فإنهم قد اكتسبوا قدرة أخرى بإمكانها أن تجعل العالم يبدو أكثر معنى وبهجة مما كان يبدو للطفل، وأعني بذلك مقدرة الدخول في تجربة جنسية. إن التجربة الجنسية تشكل لـ ٩٩٪ من البشر أعمق التجارب وأكثرها حدة في كل حياتهم لو امتلكوا الذكاء لإدراك معناها الكامل، ولقدت مقولة "تشيسترتون" قيمتها عن الشباب الأذكياء والكبار البلاء، وتغيرت كل الحياة الإنسانية.

* * *

أنا شاعر، لا أحب الناس بالشكل الذي هم عليه، وأتمنى أن يحققهم الله ويخلق خلقاً جديداً، فهم مخيون للآمال ومقبضون بدرجة كبيرة. وحين يتهمني النقاد بأنني مشغول بالجنس، أعترف بذلك بترحاب، فهو أحد الموضوعات القليلة التي يجب أن ينشغل بها الأذكياء. دعنا نفكر بالجنس ونحدث عنه فليس هناك موضوع على وجه الأرض أكثر أهمية منه، وقد يكون مفتاحاً أو دليلاً لشئ ما.

إن الشعراء والفلاسفة كانوا يبحثون عن معناه منذ تعلم الإنسان أن يفكر، وتجاهل الأغبياء الذين يخبرونك أن تدع الجنس لغرف النوم ولا تحدث عنه، نظرة واحدة إليهم ستقنعك أنهم لو فكرو لأنفسهم بطريقة صحيحة لما أصبحوا أناساً من الدرجة الثانية.

وعلى كل حال، هناك سبب آخر يحتم علينا أن نفكر في الجنس، فقد أصبح موضوعاً كثر الحديث عنه بين الشباب والمراهقين بدرجة كبيرة بلهجة اللواتي المحرب، وقد يصدمنا هذا القول لكنه صحيح.

قرأت في جريدة "الجارديان" العنوان التالي: - ٣٠٪ من البنات غير عذاري.

والمقال يتحدث عن فتاة في السابعة عشر كتبت مقالاً في مجلة تسمى "تخطيط للعائلة" تقول فيه أن معظم صديقاتها قد فقدن عذريتهن في سن الثامنة عشر وأن المراهقة بعد بلوغها بشهرين قد مارس الجنس وأن ٣٠٪ من صديقاتها لسنّ عذارى.

ويقرر د. البرت اليس أحد محرري "موسوعة السلوك الجنسي" أنه في نهاية القرن سيعتبر كل من لم يمارس الأوضاع الجنسية المختلفة مع النساء قبل الزواج إما عُصياً أو منحرفاً.

كما تحدّث أحد الأطباء في المؤسسة الطبية البريطانية حين أثير موضوع الجنس بين المراهقين عن ولد وبنت تقابلا في غرفة الانتظار في عيادته لأول مرة، ولم يكن أحدهما يعرف الآخر، وأنهما تبادلوا الجنس قبل أن يأتي دور الولد للكشف عليه بعد خمس دقائق.

وبالرغم من كل هذا، تكتب "باربارا كارتلاند" في كتابها "الجنس والشباب" "أؤكد لكم أن الأولاد الذين تربوا جيداً لا يفكرون كثيراً في البنت التي تمنحهم قبلة عند أول لقاء؟!".

وتضيف: "قال لي صديق ذات يوم عن فتاة يعرفها كلانا" لقد دهشت حين تركتني أقبلها عندما أوصلتها إلى البيت. لم يد عليها أنها من ذلك النوع".

ولقد عرفت بعد ذلك أن الفتاة قد تملكها الزهو وأثيرت لأنه دعاها للخروج معه وهي لم تكن من "ذلك النوع" لكنها فكرت أنه يتوقع أن تمنحه قبلة، فأعطتها له، وبقدر معرفتي لم يهتم بها منذ ذلك الحين". ربما لا تعرف الكاتبة ذلك، لكن الأيام التي كانت لا تفكر فيها الفتاة بتقبيل الفتى في أول لقاء لهما قد ولّت وعفى عليها الزمن. وإذا شكّت في كلامي فلتنظر أمام أية دار للسينما تعرض فيلماً لجيمس بوند مثلاً لترى العجب. ولقد أشار "أيان فليمنج" مؤلف كتب "جيمس بوند" إلى هذه النقطة قبل وفاته بقليل قائلاً "حلّ الإغواء في هذه الأيام مكان المغازلة".

بإختصار، حان الوقت ليتعلم كل فرد التفكير بذكاء في الجنس.

فلا يوجد موضوع محاط بالغباء والأكاذيب قدر الجنس، ومن المستحيل تقريباً أن يعرف الشباب اليوم الحقيقة الصحيحة عن الجنس. فهم محاصرون بوجهتي نظر متميزتين ومتضادتين.

إحدهما من كتب وأفلام المغامرة كجيمس بوند وميكي سبيلين ومن سبقهم أو من يقللهم. ومن هذه الكتب والأفلام حصلوا على انطباع بأن الجنس هو رياضة طبيعية خالصة كعمليات الصيد الجماعية، ويظهر الجيل الجديد تعلمه الدرس جيداً من هذه الوسائل حين تُغتصب فتاة على يد بعض الشبان في إحدى الحدائق.

ووجهة النظر الثانية أن الشباب نفسه يبدو ميالاً إلى أكثر أنواع العاطفة مرضاً. فالأغاني تقول له "إليك"، وهم يغنون عن تعاسة وبؤس الحب وهجران الحبيبة، تقول إحدى الأغاني "ظلت أبكي منذ

تركبني يا حبيبتي" .. كل العواطف وراء هذه الأغنيات الشعبية زائفة لدرجة تبعث على الغثيان، وفي مجتمع سليم فإن مولفي هذه الأغاني لابد أن يوضعوا في السجن.

فتحت التلفزيون منذ أيام فسمعت مطربة تغني: الناس الذين يحتاجون الناس ، هم أسعد الناس. لم أسمع في حياتي كذبة أكبر من هذه.

أعرف الكثيرين الذين يحتاجون الناس، لكنهم كلهم مرضى نفسيون. من يحتاج الإعتماد على الناس ضعيف. معظم العظماء من الرجال والنساء لا يحبون الناس بشكل خاص، لأن الإعتماد على الآخرين في الحياة يكشف بأن رأسك فارغ.

الشاعر الجيد يحتاج الجمال، والموسيقيار الجيد يحتاج للموسيقى والعالم الجيد يحتاج العلوم والرياضيات ولكن من يحتاج للإعتماد على الناس لا يساوي مليماً.

وهكذا فإن الشباب يسبحون في بحر موحل. ولا أحد على استعداد لقول الحقيقة.

هذا الكتاب سيحاول قول الحقيقة عن الجنس، بقدر ماوصلت اليه معلوماتي بالطبع، وهدفي الرئيسي أن أقنعك بأن تمارس تفكيراً غير تقليدي، وهو الأمر الذي تركه الكبار الأفاضل، منذ زمن طويل.

الفصل الاول

تاريخ العلاقات الجنسية



لا نعرف على وجه التأكيد طبيعة العلاقات الجنسية للإنسان الأول، ولكن من المرجح أنه لم يكن يهتم بما نعرفه اليوم بالزواج، ولا حتى بالإخلاص والوفاء. ويعتقد عالم السلالات "باتشوفين Bachofen" أن الإنسان الأول كان يُشبع غريزته الطبيعية مثل الحيوان، دون روابط دائمة مع أنثى معينة.

ويجب أن نضع في الاعتبار أن أحداً لم يكن يعلم آنذاك، العلاقة بين الفعل الجنسي وإنجاب الأطفال.

كان الذكر القوى، وهو أكثر الصيادين نجاحاً، يحتكر أجمل إناث القبيلة، بالضبط كما كان يسمح له بأن يختار أفضل قطع اللحم. ولكن لم يكن ذلك يتم كل يوم، حيث أن هناك الكثير من الصيادين المهرة في القبيلة، فالحظوظ متفاوت بالنسبة للرجل والمرأة في تبادل الشركاء من يوم لآخر.

وافترض الإنسان الأول أن الأطفال يأتون عن طريق السحر وبعض الفضل من الآلهة، ولذا شاعت عبارة "الأطفال هبة من الله". ومازال سكان استراليا الأصليين لا يرون، حتى الآن، علاقة بين المعاشرة الجنسية وإنجاب الأطفال.

تعتبر الغيرة الجنسية قضية مسلم بها في مجتمعنا اليوم، ونجد من الصعب أن نفهم كيف استطاع الإنسان البدائي التحرر منها.

ومع ذلك، فمازال "الإسكيمو" يمارسون عادة إعاره زوجاتهم إلى الضيوف، وبعض القبائل من سكان استراليا الأصليين يمارسون عادة تبادل الزوجات فيما بينهم.

تعتبر الغيرة قضية اجتماعية، بالرغم من أننا قد لا نرى العلاقة من أول نظرة. وقد أدرك علماء الحيوان في السنوات الأخيرة أن الجنس عند الحيوان هو جزء من الحافز الاجتماعي المتعلق بالمكان، فأقوى فرد في قبيلة القروود يستاء من أية محاولة لسرقة أنثاه، لأن في ذلك تحد لسلطته الاجتماعية وليس لأن ذلك يثير غيรته الجنسية. ولإنشغال الإسكيمو الدائم بمكافحة قسوة الطبيعة حولهم، فهم أقل اهتماماً بهذه القضايا. ويلعب شبابهم في الشتاء لعبة تسمى "إطفاء النور"، حيث تُطفأ المصابيح واحداً وراء الآخر، ويختار الرجال والنساء، عفويّاً، شريكه أو شريكه في تلك الليلة - وواضح أن إطفاء النور بالتدريج، يهدف إلى إثارة حالة من الهياج الجنسي.

هذا النوع من السلوك يبدو طبيعياً بالنسبة للبشر في حالتهم العادية، وهو سبب الاعتقاد بأن الإنسان البدائي لم يعرف شيئاً عن الزواج.

وحين كان البشر بدائيين، كانوا أيضاً واقعيين. فهم يختطفون مايمكنهم الحصول عليه - أقرب امرأة مثلاً - ويسعدون في الحصول عليها.

ولكن مخيلة الإنسان غيّرت كل ذلك. فالرجال الذين لم تكن ظروفهم صعبة، وكانت لديهم طاقة فائضة بعد الصيد وبناء السكن، امتلكوا الوقت لأحلام اليقظة، وبدأوا يفكرون أكثر في المسائل الجنسية، وتفوق أحدهم على الآخر في الصراع فالإسكيمو مثلاً لإنشغالهم الدائم بمكافحة الطبيعة، فهم طيبون ومسالمون، أما الرجال الذين ليس لديهم مايفعلونه، فإنهم يشغلون وقتهم في الصراع.

وبرزت فكرة الملك أو القائد بالتدريج. واخترع الإنسان الآلهة - رهبة أو رجاء - ثم عيّن الكهنة لخدمتها، وهكذا تحولت العلاقات القبلية من علاقات دافئة وودية تنقسم طعامها ونساءها، إلى مجتمعات مقسمة إلى طبقات. وأصبح القادة فخورين بمواقعهم، حذرين ممن يتحدونهم، وأصبحت

إنانهم ملكاً لهم، وأية محاولة لسرقة أو إغواء الزوجة تعتبر إهانة مميتة، وهكذا نرى حين سرق "باريس" هيلانة من طروادة قضى اليونانيون عشر سنوات يقيمون لهذه الإهانة.

من الصعب أن نتخيل الحالة العقلية للإنسان البدائي، فلم يكن لديه علوم أو فنون، وحين تكون الطبيعة خيرة معهم، لم يكن لديهم ما يفعلونه سوى ملء عقولهم بالمعارك والأعمال الفذة للبطولة والثأر للإهانات التي تلحق بهم. والوسيلة الوحيدة للمتعة كانت الاستماع إلى المغنيين ورواة الحكايات الذين يتحدثون عن المعارك.

لكن الفراغ الذي أنتج كل هذا الاهتمام بالحرب والملكية، كانت له بعض الآثار الأقل كدراً وحزناً، فلقد قاد بعض الرجال الأذكياء لكشف متعة التفكير من أجل التفكير ذاته. وهكذا اكتشف كل من المصريين القدماء واليونانيين والعرب اكتشافاتهم الخاصة في العلوم والرياضيات، ووضعت أسس الفن والشعر.

وهكذا جاءت الخطوة الكبيرة الثانية في تقدم الجنس البشري.

الخطوة الأولى كانت في البداية - قبل مليوني سنة - حين استطاع الإنسان الأول أن يتعلم استخدام قطع العظم كأدوات للدفاع عن نفسه وللصيد مما أدى إلى اختراع الأدوات وبدء عصر البشرية الحقيقي.

هنا تلفت نظرنا ملاحظة مهمة: هذه الشعوب التي كانت مسئولة عن مولد العلوم والرياضيات، كانت أول الشعوب التي اعتبرت اللواط قضية مسلماً بها.

اليونانيون، على سبيل المثال، كانوا يعتبرونه أمراً طبيعياً أن يكون للرجل المتزوج رفيقاً من الغلمان يهتم به حتى أكثر من زوجته. كان الهدف من الزواج آنذاك هو إنجاب الأطفال، وكان والد العروس يقدم مهرأ مغرياً للزوج، ولكن كان مكان الزوجة البيت، ولم يكن يُتوقع منها أن تكون شريكة حقيقية لزوجها، كما كان باستطاعته أن يتخذ عدداً من العشيقات شرط ألا يكن زوجات لآخرين، أو يختار ولداً جميلاً ذكياً ليصبحه في ساعات فراغه.

وإذا كان الزوج في منصب كبير، فإن والد هذا الغلام يفخر بأن ابنه قد اختير لهذه المهمة، ويصبح الرجل كأب للولد، يطور تفكيره وعواطفه في مقابل الاستمتاع الجسدي. ولم يكن هناك أي حجل من هذه العملية، فقد كان أمراً عادياً أن يكون الغلام موضوعاً للحب والجنس كالمرأة تماماً.

من ناحية أخرى، كانت الفتيات أقل حظاً، فقد كان يُتوقع من الفتاة أن تحافظ على عذريتها حتى الزواج، ثم تكون بعد ذلك مخصصة تماماً لزوجها. وإذا كانت هناك جرائم جنسية في اليونان القديمة، وقد وجدت هذه الجرائم بالطبيعة الإنسانية لم تتغير، كان الضحايا غلماناً صغاراً وليس الفتيات - لو قرأ اليوناني القديم رواية لوليتا لوجد لها محيرة.

كما أن الملاحظ بأن هذه الحضارات الأولى، التي أنتجت الفلسفة والأدب، كانت تنظر إلى الإنحرافات الجنسية كأمر طبيعي. فالليونانيون لم يعتبرونها إنحرافات، فقد ارتبطت بأذهانهم بأمور رأوها مفيدة، بالفن والفلسفة والثقافة عموماً، وكانت الثقافة احتكاراً ذكورياً، لقد وجدت المرأة المثقفة لكنها كانت نادرة، وأعتبرت النساء مخلوقات أقل درجة من الرجل، وليس في مقدرتهم مشاركة الرجل أهدافه السامية أو أفكاره العميقة. فإذا وجد الرجل رفقه روحية مع غلام جميل فما الذي يمنع أن ينام معه في الفراش. وهكذا فإن الفكر اليوناني والنساء لم يدخلوا في صراع على الإطلاق.

لم يصل الأمر عند المصريين القدماء والعرب إلى هذه الدرجة في قبول اللواط، لكنه كان موجوداً ويُعتبر أمراً مفروغاً منه.

ومن الطريف هنا أن نقارن بين العقلية اليونانية والعقلية اليهودية، كان العبرانيون القدماء متعصبين وضيقى الأفق، يهتمون قليلاً بالدين، وكثيراً بالصراع فيما بينهم، ولم ينتجوا علماً أو أدباً، وإن انتجوا قليلاً جداً من الشعر، وكانت قوانينهم ضد اللواط صارمة أكثر من غيرهم، وهكذا يمكن القول أنه حين يُسمح للخيال أن يتطور، فإن الإنحراف الجنسي يتبع ذلك تلقائياً.

لقد كان الهنود القدماء أناساً مثقفين جداً، وهكذا كان الفرس، ولذا فإن اللواط كان أمراً عادياً في هذين القطرين. (في الطبقات المصورة لرباعيات الخيام كان المحبوب يصور عادة كغلام جميل في شكل فتاة).

حين نأتي لروما القديمة، فإننا ندخل إلى جو أكثر حداثة. فالمثال اليوناني للحب الروحي السامي قد اختفى، وأصبحت كلمة حب تعني الرغبة الجنسية، والشعراء الرومان - هوراس وأوفيد وكاتولوس وبروبرتيوس ولوكريشوس - رأوا في الحب نشوة وتعذياً والدين الروماني كان ذا علاقة وثيقة بالجنس، ورمز القضيب المنتصب كان حاضراً في معظم الرسومات الرومانية، بل يمكن القول أن رمز الحضارة الرومانية كان القضيب المنتصب، رمز الحيوية الخشنة، والدافع القوي للسيطرة والنصر. وكان اللواط منتشرًا ومقبولاً كما كان في الحضارة اليونانية، لكن دون التمسح بالمثالية الثقافية.

وكانت ممارسة الجنس مع الحيوانات، منتشرة وتعتبر أمراً عادياً، كما كانت عند شعب العمونيين في الشرق، الذين كانوا يعبدون الإله "مولوك"، وكانوا يضعون في معابدهم بجانب العاهرات من الإناث والذكور كلاباً مقدسة ليستخدمها العابدون جنسياً. وكانت النقود التي يدفعها هؤلاء العابدون توضع على مذبح الإله في المعبد.

لكن الأمر الطريف في كل هذه الحضارات القديمة، أن الزواج كان يُعتبر أمراً مقدساً، وكان الهدف منه أن يستمر وجود الجنس البشري، فقد كان عدد سكان العالم منذ ثلاثة آلاف سنة صغيراً نسبياً، حوالي مائة مليون نسمة، وكان مهماً أن يتزايد عدد السكان. وقد كان الإمبراطور أغسطس

في روما القديمة، فلما تناقص عدد السكان - نتيجة لزيادة اللواط والدعارة - مما اضطره لسن قوانين تعاقب الرجل غير المتزوج فوق العشرين، والفتاة غير المتزوجة فوق الخامسة والعشرين، وكذلك قانون لمعاقبة الزوجين غير المنجيين. (لكن كل ذلك فشل في انفاذ الوضع).

وهذا هو السبب في اعتبار الزواج أمراً مقدساً دائماً، وفضيلة ضرورية، فحتى الرومان، الذين كانت نظرتهم متساهلة في كل أمور الجنس، كانت لديهم قوانين قاسية ضد الرجال الذين يحاولون إغواء الزوجات.

من ناحية أخرى، كانت الدعارة مقبولة من كل الحضارات القديمة، اليونان والرومان وحتى العبرانيون كانت لديهم عاهرات المعابد - بمعنى كاهنات يقدمن أنفسهن لطالب المتعة، مقابل نقود للآلهة والمعابد. وهكذا قُسمت النساء في معظم الحضارات القديمة إلى نوعين منفصلين تماماً: الزوجات الفاضلات ثم العاهرات. - وكانت المحظيات يشكلن فريقاً ثالثاً -، وإذا أراد الروماني متعة الجنس فإنه يذهب إلى عاهرة أو إلى عشيقته أو غلامه. فزوجته هي للإنجاب فقط.

فالجنس ينقسم إلى قسمين: المتعة والإنجاب. العشيقة والزوجة، الجنس المنحرف والجنس العادي، وكلها متصلة بعضها ببعض. كانت الزوجات أكثر قليلاً من ربات بيوت ومنجات للأطفال.

ثم جاءت الثورة الجنسية التي أحدثتها المسيحية. لكن قبل الحديث عنها لابد أن نؤكد أن معظم الأديان السابقة على المسيحية كانت تهتم بالجنس. فالإنسان البدائي، سواء عاش في مصر أو اليونان أو المكسيك، اعتبر القضيب عضواً مقدساً، والمعابد القديمة مملوءة بالرموز القضيبية. وحسب الأسطورة الهندوسية فإن الإله "شيفا" فقد عضوه التناسلي بسبب لعنة نزلت عليه، فسقط منه وغاص في الأرض، ثم نما بشكل ضخم حتى وصلت جذوره إلى مركز الأرض ورأسه إلى السماء، ثم تحول إلى عمود من النار تسبب في الزلازل والكوارث الطبيعية، ونهبت اثنتان من الآلهة، فشنوا وبراهما لتبحثا مسألة حجمه، واكتشفتا أنه لانهائي، فطلبتا من الآلهة الكبيرة ديفي Devi أن تستقبل هذا العضو في فرجها، فوافقت وأنقذت العالم، ونصحت البشر ألا يلعنوا القضيب ثانية وأن يعتبروه مقدساً.

هذه هي الأسطورة التي ابتدعها الهندوس لتفسير سبب امتلاء دينهم بالأسرار الجنسية.

وفي كثير من الأديان القديمة، كان يُرمز للقضيب بالثعبان وأحياناً بالسמكة (والسبب في ذلك واضح، فالسمكة لامعة وزلقة، والثعبان يستطيع أن يدخل الأماكن الخفية). وكان الثعبان أحد الرموز الأساسية للإله اليوناني ديونيسوس (باخوس) إله الخمر، مع أنه يرسم أحياناً كحمل أو ثور بري، كل هذا يوضح، حتى لو لم يكن لدينا شواهد أخرى، بأن ديانة باخوس كانت جنسية في معظمها، وفي طقوسها يتعري العابدون ويسكرون ويرقصون. ثم - كالإسكيمو - يختار كل منهم رفيقته.

كل ذلك كان طقساً في عبادة الآلهة، لقد اعتقدوا أن شعورهم بالنشوة يؤكد أن إلههم قد نزل بينهم.

وهناك في أمريكا اليوم من يدينون بعبادة الثعبان، يحملون الثعابين ويدورون بها حتى يصلوا إلى درجة عالية من التهييج الجنسي، ولكن برغم عدم وجود طقوس جنسية مفضوحة هنا، فإن الباحث وليم سارجنت في كتابه "معركة العقل" يروي على لسان أحد الشباب بأنه يذهب إلى هذه الحفلات الدينية خصيصاً لإغواء الفتيات وهن في هذه الحالة من الهستيريا.

هذا النوع من التخلي الكامل عن شخصية المرء العادية، مرتبط حتماً بالتهتك الجنسي.

معظم الديانات القديمة، كان فيها مثل هذه العناصر الجنسية، وجاءت المسيحية لتغيّر كل ذلك. وقد أصبحت موضة، الآن، أن يسخر الناس من محاولة المسيحية تحويل الجنس إلى خطيئة، لكن الأكثر أهمية أن نفهم ذلك..

لم توجد ديانة سابقة تشبه الديانة المسيحية لقد ظن اليونانيون أن العالم التحتي هو حرفياً تحت الأرض، وأن الآلهة تسكن جبل الأولمب، وتتصرف مثل البشر العاديين، بالغيرة والثأر والإغواء والشجار، والشئ نفسه أيضاً بالنسبة لآلهة بلاد الشمال في أوروبا بقبائلها المختلفة. وقد كان الدين الهندوسي أكثر عمقاً، لكن فيما يخص الناس العاديين فقد كان ديانة أخرى من الآلهة والشياطين والتنافس اللانهائي.

اليهود وحدهم كانت لديهم ديانة تؤمن بالإله الواحد، لكن كانت عقولهم ضيقة الأفق في تفسير النصوص حرفياً، فقد اعتقدوا بأنهم شعب الله المختار، وأن إلههم يتدخل في شئون الحياة اليومية ليتنصر لهم ضد الشعوب الأخرى... وهكذا.

لكن الجنس البشري كان ينضج يبطء، والديانات التي كانت تناسب الفلاحين والمحاربين البسطاء، لم تعد تحقق المطالب الداخلية لأناس بدأوا يتعلمون استخدام خيالهم. فجاءت الديانة المسيحية، أعمق وأعظم من كل الديانات التي سبقتها، عدا البوذية، وإن كان هذا احتمال مشكوك فيه.

لقد كانت مختلفة عن الديانات القديمة، اختلاف الموسيقى الكلاسيكية عن الجاز، أو اختلاف الأدب العظيم عن الصحيفة اليومية.

كانت ديانة ناضجة، فالناس قد نضجت وأصبح تفكيرهم أعمق، واحتاجوا إلى ديانة أعمق، ليست كآلهة اليونان القديمة التي تبعث على الضحك، الكلمة غير مناسبة، لكن يمكننا القول أنها كانت ديانة أنبل من أي ديانة قبلها. وهذا سبب قوتها، فالبشر ليسوا حيوانات، على الأقل ليس بشكل كامل، وهم يحاولون دائماً أن يتخلصوا من الجانب الحيواني من أنفسهم، ومن تلك الطبيعة التي تعاملهم كأنهم حيوانات.

كانت المسيحية أول ديانة تقول للناس "أنتم لستم حيوانات. أنتم أرواح خالدة".

وكان ذلك ما يريد كل إنسان أن يصدقه في تلك المرحلة من تاريخ البشرية، وبغض النظر عن رد فعل الديانات القديمة، والمادية السخيفة للحضارة الرومانية، والتعصب الأعمى للديانة اليهودية، فإن الناس رحبوا بالمسيحية. وسار المسيحيون إلى الميدان، يغنون سعداء، برغم استخدامهم كمشاعل حية أو إطعامهم للأسود. وإذا كانت آمالهم قد فشلت فمازال لديهم الأمل أن يعثوا على يمين المسيح يتمتعون برؤية معذبيهم في الحميم.

إذا فهمنا ذلك، فستوقف عن ارتكاب الخطأ بمهاجمة المسيحية كدين ضحل حل محل اللا أخلاقية المرححة لليونان والرومان.

كان على المسيحية أن تظهر، فقد كانت البشرية تنتظرها، بل كانت متعطشة إليها، ولو لم يأت المسيح في تلك اللحظة، كان لابد أن يأتي نبي أو مخلص آخر.

لكن يجب أن نلاحظ أن المسيح والمسيحية كما نعرفهما اليوم مخترعان تماماً. كان المسيح - بوصف معاصريه - محدودب الظهر قليلاً، طوله حوالي متر ونصف، أنفه طويل وأصلع في مقدمة رأسه، وله لحية سوداء قليلة الشعر. لكننا نراه اليوم طويل القامة أزرق العينين بلحية شقراء وخصل من الشعر غزيرة. أخبر أتباعه أن مملكة الله تقع داخل نفوسهم، وأن عليهم أن يحبوا جيرانهم. لكن تابعه العصابي واسع الخيال القديس بولس غير كل ذلك. وقال أن المسيح هو ابن الله وأنه مات على الصليب ككبش فداء لخطيئة البشر، ليضمن أن حتى الخاطئ سيدخل الجنة إذا أعلن نفسه مسيحياً.

ليس من الضروري بالطبع القول أن المسيح لم يقل شيئاً من ذلك، وأن تفسير القديس بولس للمسيحية هو عكس ما عناه المسيح بالضبط.

لقد كان القديس بولس هو الذي أعطى المسيحية مفهومها ضد الجنس، موضحاً ولو أن "التزوج أصلح من التحرق" لكن المسيحي الجيد يجب أن يكون قادراً على الحياة بدون الجنس. (يجب أن نلاحظ أن القديس بولس كان يؤمن بأن نهاية العالم ستحدث في حياته، ولذا فإن مسألة استمرار الجنس البشري لم تثر في ذهنه).

جاء رد الفعل ضد الجنس هذا، كرد فعل كبير ضد الديانات الوثنية القديمة برموزها اللاتناهية عن الجنس، ولكن من الطريف أن نلاحظ أن المسيحيين الأوائل اختاروا أحد هذه الرموز الجنسية كعلامة لهم - السمكة - وهكذا فإن عنصر الجنس الذي قُذف به من الباب الأمامي، عاد زحفاً ثانية من الباب الخلفي.

حيث أصبح المسيحيون أخيراً سادة روما في سنة ٣١٢ ميلادية، وأصبح قسطنطين أول أمبراطور مسيحي، بدأت الأفكار الوثنية تزحف ثانية لتثار من الدين الجديد. كثير من الأعياد الوثنية أصبحت أعياداً مسيحية، وهذا يعني أن هناك جزءاً وثنياً في المسيحية.

والنساء اللواتي دخلن الأديرة، أصبحن عرائس المسيح، ومما لاشك فيه أن نشوتهن الصوفية كانت تحتوي على عنصر قوي من الجنس.

كان آنذاك عدد النساء أكبر من عدد الرجال في العالم، ولكن المسيحية حددت امرأة واحدة للرجل الواحد، وهذا يعني أن نسبة كبيرة من النساء إما أن يقضين حياتهن في إحباط جنسي أو يتحولن إلى عاهرات. تحت مثل هذه الظروف ليس من المدهش أن يندمج الدين والجنس ثانية كما حدث أيام ديانة ديونيسيوس أو أوزوريس. ولكنه جنس مُموه تحت أقنعة الدين، وحين يطل برأسه في مناسبة ما، فسرعان ما يُربط بالشیطان، وهكذا كانت كل القضايا الغريبة عن الرهبان المسوسات، أو الساحرات اللواتي اعترفن بممارسة الجنس مع الشيطان.

وهكذا، أصبحت المسيحية بعد ستين عاماً كالتأقية العجوز، أضاعت نيران "سيفل"، وأحرقت الساحرات، وعذبت اليهود، وأجبرت العلماء أن يستنكروا ما اكتشفوه، ويعلنون أن الشمس تدور حول الأرض. لكن كل ذلك قد انتهى، وقامت المسيحية بدورها ودفعنا الجنس البشري خطوة للأمام، وذلك هو المهم. أما الآن فهي ديانة ميتة كالديانات القديمة التي ماتت، من يونانية ورومانية وغيرها.

وبرغم إيماني بأن المسيحية ديانة عفى عليها الزمن وليس لها فرصة أن تقوم ثانية أكثر من فرصة الديانات الوثنية، لكن ليس هناك مجال للسخرية منها. لقد أدت هدفاً كبيراً جداً بالأخذ بيد الإنسان عبر فترة من أصعب وأخطر الفترات في رحلة الإنسان من الهمجية إلى التقدم. الإنسان بعدها لم يعد هو الإنسان القديم، لقد أصبح له عقل يفكر به، ويعرف أن باستخدامه يستطيع أن يغير نفسه والعالم. صحيح أنه مازال بعيداً من أن يكون انساناً كاملاً، لكنه لم يعد سلبياً، يؤمن بالخرافات كالإنسان البدائي.

لكن، لو نظرنا إلى حالة الإنسان الآن، فسنعده متعباً من نفسه ومن العالم، بالضبط كما كان المسيحيون الأوائل متعبين من مادية روما ودينها الميت.

الإنسان المعاصر متعب من حضارتنا الغربية برأسالياتها السخيفة وشيوعيتها العنيفة على السواء. إن مادية حضارتنا جعلتنا لا ننظر داخل نفوسنا بالدرجة الكافية، ومعظم الأدب الحديث يتحدث عن الضعفاء، وبدت رسالة الأدب كأنها تقول أن الإنسان ضعيف.

هناك الكثيرون الذين يتمرّدون على هذا، دون أن يعرفوا السبب، لقد أسميت هؤلاء باللامتمنين، وسأتحدث عنهم بتفصيل أكثر في فصل قادم. وحين تمتلئ حضارة بهؤلاء اللامتمنين فهي بحاجة إلى شيء جديد، كما كان الوثنيون قبل ألفين من السنين.

إن هذه المناقشات حول الدين هي ضرورة تماماً لفهم الموضوع، فما يحدث لحضارتنا اليوم يشبه كثيراً جداً ما حدث للحضارة الرومانية، أعني بذلك أنها تتفسخ، وإذا أردت أن تعرف بشكل واضح

ماحدث للحضارة الرومانية فاقراً تاكيتوس وسويتونيوس Tacitus and Suetonius، أو رواية روبرت جريفز "أنا كلاوديوس I, Claudiu، ثم أقرأ مؤلف جيبون "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها". (وهو مترجم إلى العربية في ثلاث مجلدات عن الهيئة المصرية العامة للكتاب هـ.م).

لقد أصبحت روما حضارة لا تفكر إلا في أشياء قليلة غير الجنس والحرب - مثلنا تماماً. مورست أشكال الإنحراف الجنسي على نطاق واسع وأُعتبرت أموراً عادية. لقد تزوج الإمبراطور "نيرون" بالفعل غلاماً ألبسوه كفتاة في إحتفال كبير وأبهة فحمة، لقد ارتكب الزنا بالمحرمات مع والدته بحثاً عن إثارة جنسية جديدة. وإن تاريخ الأباطرة "تييريوس" و"كاليحولا" و"نيرون" مملوء بتفاصيل قذرة من هذا النوع، وأن معظم الترجمات الشعبية عن هؤلاء ترك أجزاء كبيرة من هذه الأحداث باللغة اللاتينية.

حين يدرس المؤرخون في المستقبل عالم القرن العشرين، سيلاحظون مثل هذا الإنهيار الأخلاقي العجيب، وسيرون في كتب مثل "لوليتا" و"عشيق الليدي تشارلي" و"فاني هيل" وروايات جيمس بوند وغيرها، وثائق مهمة لهذا الإنهيار.

لن يدبهنوا ذلك، ولا أنا أسعى للإدانة أيضاً، لكنهم سيرون في ذلك دلالات لعملية مشابهة حدثت في روما القديمة زمن للمسيح. وهذا مايجعلنا نلقي الضوء على مايجد لأحلافنا الجنسية في القرن العشرين.

لم يعد الجنس وسيلة لزيادة النسل فقط، وهذا مفيد بالنسبة للإتفجار السكاني الذي نعاني منه على الأقل، ولدى النساء اليوم حرية أكثر من نساء اليونان أو روما القديمة، وهن متعلّصات بشكل أفضل، ودخلن معظم حقول العمل التي كانت تُعتبر ذكورية، من السياسة والعلم والفن والعمل الاجتماعي إلى الجيش والشرطة.

وهكذا فإن الثورة الجنسية لم تعد مقصورة على الرجال كما كانت عند اليونان والرومان، وهذا يعني بدرجة ما أن اللواط قد ظهر منافس له.

لم يكن اليونانيون القدماء يدورون لإغواء العذارى غير المتزوجات، ولكن الإغواء اقتصر على العاهرات والغلمان والشباب الجذّاب. الآن قليل من الفتيات من تكون عذراء حين تتزوج (الحديث عن الغرب بالطبع)، وهذا اختلاف كبير بين عصرنا وعصر سقراط أو المسيح. الثورة الجنسية الحاضرة أثرت في كل فرد سواء كان هذا التأثير حسناً أو سيئاً.

باختصار، لاشك أن حضارتنا الغربية قد وصلت إلى المرحلة نفسها التي كانت عليها روما منذ ألفي سنة، ولكن ليس بالصورة نفسها. وأنا أكتب هذا الكتاب تسلمت بالبريد معدلات أرقام الجرائم في "لوس أنجلوس"، كل نوع من الجرائم قد إزداد معدله عن العام الأسبق له، والأرقام تعكس مايجد في جميع أنحاء العالم. في بريطانيا تضاعفت جرائم العنف بما فيها الإغتصاب عدة مرات، والأرقام في تزايد بمعدل كبير سنة بعد أخرى. كما هي الحال في أمريكا.

وأنا لا أذكر هذا بأية روح تشاؤمية لأبّين نهاية حضارتنا، فأنا لا أعتقد بذلك، لكن يجب أن نواجه بموضوعية نوع الحكم الي سيطلقه مؤرخوا المستقبل عنا. سيقولون "إن حضارتهم أصبحت معقدة لدرجة أنهم لم يعرفوا رؤوسهم من أرجلهم، وكانوا أذكاء ومتعلمين، لكن ذلك لم يوفر لهم هدفاً يسعون إليه، والشئ الأساسي الذي لاحظناه، أنهم بلا هدف، منهكون وضجرون بشكل غريب، أقاموا سنة ١٩١٤ أحد أكبر الحروب في التاريخ، راح ضحيتها تسعة ملايين من البشر، وكنا نعتقد أن هذه التجربة ستوقفهم، لكنها جعلتهم يندفعون في عربة النسيان، وقام إنسان نصف مجنون، يعاني من عدة أمراض جنسية، ليغزو أوروبا، وكانت الضحايا في هذه المرة خمسين مليوناً من البشر، وحين هُزم هذا المجنون، حُزن العالم من الفرح، ولربما تظن أن حضارتهم ستصبح الآن عظيمة، وأنهم سيتحولون إلى رجال حادين لهم هدف واضح، لكن ذلك لم يحدث، ومضى السياسيون يتشاجرون على أشياء تافهة كالأطفال، وأصبح العصر الجديد، عصر الجاز والتلفزيون ولوليتا وجيمس بوند والهيروين والماريجوانا والعنف والجنون وجرائم الجنس التي وصلت معدلات لم تصلها من قبل.

أوافق أن كل ذلك يبدو وكأن لا أمل هناك، وكأن المريض يعاني من أمراض عدة لن يُكتب له النجاة منها.

أول من قال بهذا الرأي، الكاتب الألماني "أزوالد شبنجلر"، بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، في مؤلفه الضخم "تدهور الحضارة الغربية" - ترجم إلى العربية في ثلاث مجلدات وصدر في بيروت. ه.م. - وناقش فيه الحضارة الغربية كرجل بلغ من الكبير عتياً وآن له أن يموت. فكل الإشارات تدل على أنها على سرير الموت.

وهناك مؤرخ آخر جاء بعده وكان أقل تشاؤماً منه، وتحدث عن الموضوع ذاته بإقناع أكثر وفي عمل أكبر هو "دراسة التاريخ" لمؤلفه أرنولد توينبي (وقد ترجم إلى العربية مختصراً في أربع مجلدات عن دار المعارف بالقاهرة. ه.م.).

لكنني لا أعتقد أن الأمور بهذه الدرجة من السوء. فالحضارات تأخذ وقتاً طويلاً لتموت - اسفرت روما قرنين في حالة نزاع - إذن فهناك الكثير من الوقت لحل المشكلة، وهناك دلائل بالفعل تبين أننا في طريق الحل. لا نأمل طبعاً في أن يعتنق الغرب ديناً جديداً، فقد تخطى هذه المرحلة، لكن العلم الآن توقف عن أن يكون حامداً ومادياً، وبدأ يدرك أن الجنس البشري على حافة تغيير هائل، فالبحوث الجديدة الآن في أعماق النفس، وحاسة الإدراك الفائق، والتخاطب الفكري عن بعد وماشابه، ستؤكد أن الإنسان يملك قوى أكبر مما يدرك. قد يأخذ ذلك وقتاً طويلاً، لكن هناك الكثير من الوقت. لقد عجل بسقوط روما أسراب البرابرة التي غزتها، وليس لدينا على الأرجح غزو من

البرابرة، في عصر القنبلة الهيدروجينية التي خلقت توازناً متوتراً من القوة، وغزو الفضاء الذي يواجهنا كأحد التحديات الكبرى. كل ما أستطيع قوله أننا نسير في الطريق الصحيح.

وأكرر، أننا يجب أن نفهم كل هذا، قبل أن نفهم حقيقة ما يحدث للسلوك الجنسي في قرننا.

من المؤكد أن هناك تزايداً في العلاقات الجنسية بين النساء والرجال وبين الرجال والرجال والنساء والنساء. لكن ذلك لا يثبت أن حضارتنا تموت. فالجنس وحده لا يميت الحضارات.

ولتوضيح هذه النقطة، لا بد أن نأخذ في الاعتبار، ما يحدث للسلوك الجنسي في بلدان العالم الأخرى خارج الحضارة الغربية. في روسيا والصين، ينظرون إلى العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج بعدم ارتياح. في الصين، امرأة واحدة للرجل، والاتصال الجنسي قبل الزواج عليه عقوبة شديدة، كل هذا مفهوم، حيث تقع البلدان في قبضة تجربة اشتراكية كبيرة تقدم معنى ما لهدف ما. لكن كم من الوقت ستظل الشيوعية حارسة لهذا الهدف حين تصل الدولتان إلى مستوى المعيشة والرفاهية الغربية! سؤال مفتوح من ناحية أخرى، فإن الجنس يعامل في اليابان بحرية يصعب على المجتمع البريطاني تصديقها. يبدو أنه لا يحجل إطلاقاً من الجنس في اليابان. فالعادة السرية تعتبر ببساطة متعة فردية، كالقراءة. والذكر في اليابان هو الأسمى والأعلى، والطفل الذكر حتى وهو في المهد يُنظر إليه بأنه مخلوق أسمى بكثير من أمه وأخوته. وقد تمسك أمه بعضوه إذا كان كبيراً وتبافى باستعراضه أمام الأصدقاء، ولو لعب الولد بعضوه أو حتى تفحص الأعضاء الجنسية لأخواته وزميلاته، فإن هذا يُعتبر أمراً عادياً ويلقى التشجيع.

وحقيقة أن للرجل هو الأسمى، تعني أن للممارسة الجنسية خارج العلاقات الزوجية تعتبر قضية مسلمة. إن أية زوجة لا تجرؤ أن تعرض على احتفاظ زوجها بعشيقته خاصة إذا كان غنياً أو ذا نفوذ.

(الشخصية اليابانية بعيدة عن الديمقراطية بقدر ماتنخيل، كل فرد في المجتمع له مكانته ويحافظ عليها بدقة شديدة، ويمكنك أن تحكم على مركز الرجل من درجة الإغناء التي يلقاها من الآخرين).

وحيث أن الإبن هو الأمل ومحط الإعجاب، فهو غالباً ما يندفع لممارسة الجنس في سن مبكرة. وقد يأخذه والده إلى أحد بيوت الدعارة كهدية في عيد ميلاده.

هذه الصراحة حول الجنس، تعني أن وسواسنا حول الأدب الجنسي غائب كلية تقريباً عند اليابانيين، ورواية "كفاني هيل" ستبدو لهم مسلية ومفيدة ولكن ليست أدباً جنسياً مكشوفاً. ولقد كانت تباع في المحلات هناك ولفترة قريبة كتب تسمى كتب الزفاف، فيها من الصور الفاضحة والأوضاع الكثير، وهدفها هو إثارة الشباب من الجنسين، ومن المفروغ منه أن يتفرج الفتى والفتاة على مثل هذه الكتب، ثم يجربون الأوضاع الموجودة فيها، وكانت تعتبر غير مضرّة، بل كالألبوم الصور العائلية، كما تباع المحلات التجارية أدوات تساعد في زيادة للمتعة عند ممارسة العادة السرية عند الجنسين.

ولمحيث أن اليابان قد دُفعت دفعاً لكي تتأمر (تصبح كأمريكا) فإن كثيراً من هذه التجارة أضحت سرية، ومن الطريف أن نلاحظ المدى الذي ستسمح فيه اليابان لنفسها أن تندفع تجاه الإحتشام الغربي في الجنس!

ولابد أن نذكر، أن هذا التقديس للذكر له جانب المزعج، فهو يشعر أنه يحمل كل آمال العائلة، وقد يصبح بسبب ذلك عصائياً جداً، ومن الشائع هناك، أن يتحدر طلاب المدارس إذا فشلوا في امتحاناتهم، وهنا يبدو للمرة الثانية، موقف اليابانيين، غير مفهوم للرجل الغربي، فالعائلة التي يتحدر ابنها بالقاء نفسه تحت عجلات قطار لأنه رسب في الإمتحان، تشعر بالفخر وكأنه نجح في الإمتحان، فلقد برهن على إحساسه الخاد بالشرف وتحرره من الجبن وعمله فخر تعتز به العائلة كأنه قُتل في معركة. فالإنتحار لا يعتبر عملاً سخيلاً أو حتى جريمة.

اليابانيون شعب غريب، فلا توجد كوابح أو ممنوعات فيما يخص الجنس والخمر، ولكن في كل العلاقات الشخصية الأخرى، هناك كوابح وموانع قد تدفع معظم الغربيين إلى الإنتحار. فالتناس تتصرف وكأن كل منهم يخاف الآخر، فصاحب العمل مثلاً لا يجزؤ أن يوبخ موظفاً عنده لسوء عمله، فسيعتبر ذلك إهانة عميقة وخطيرة، والموظف الذي يعتمد إهانة موظف آخر، فهو يخاطر بتلقي رد عنيف قد يصل إلى القتل. معظم أمراض اليابانيين النفسية سببها نوع من الخوف من الآخرين، والذي يعاني من ذلك لا يستطيع أن ينظر إلى الناس في وجوههم، وإذا وجهت الحديث إليه يحمر وجهه.

وهكذا، فبينما تأثير الغرب على اليابان قد يكون سيئاً فيما يخص الجنس، لكنه حسن في معظم الأشياء الأخرى. وعلى كل حال فإن الأجيال الجديدة تطور وسائل حرة وسهلة، تصدم الآباء غالباً لكنها بلاشك دلالة صحة.

إن ذكر الإنتحار، يقودنا بشكل طبيعي إلى السويد، التي تعادل نسبة الإنتحار فيها اليابان تماماً. فذاك شخص من بين كل خمسة آلاف شخص ينتحر سنوياً. والإنتحار مرض ينتج عن الملل والضعف، والبلاد التي تقل بها نسبة الإنتحار هي أيضاً أفقر البلاد في العالم. - كأيرلندا الجنوبية مثلاً، فنسبة الإنتحار هناك واحد إلى خمسين ألفاً - فحيث يوجد الفقر تنخفض نسبة الإنتحار، وحيث يوجد الرخاء - ألمانيا، النمسا، الدنمارك، السويد وسويسرا - فنسبة الإنتحار مرتفعة، وسويسرا تعتبر أعلى نسبة في العالم (٢٣ نسمة من كل مائة ألف)، ومعدل الإنتحار في بريطانيا يعادل مائتي أمريكا (واحد لكل عشرة آلاف نسمة) وهو نصف معدل ماهو في السويد.

موقف السويديين من الجنس تحكمه المصادفة الساحرة. آخر مرة كنت فيها هناك، كانت إحدى الجمل الدارجة "هيا نذهب إلى السرير ونرى إذا أعجب كل منا الآخر". وجملة أخرى "كان ذلك رائعاً.. ما اسمك؟".

هناك الإجهاض قانوني، ولا توجد رقابة على الأدب الجنسي، والسويد من أكثر الدول اكتفاءً في العالم وبدون بطالة تقريباً، سجونها متحضرة جداً ومفتوحة، ومستوى معيشة الفرد العادي منهم كمستوى العائلة المتوسطة في بريطانيا.

والنتيجة الغريبة أن ممارسة الجنس منذ الصغر، والانتحار، في طريقهما لأن يصبحا هواية قومية هناك، طبعاً هذه مبالغة لكنها تعبر عن شيء من الصدمة للملاحظ الذي يدرس المجتمع السويدي.

لكن الوقت قد جاء لنواجه هذه المشكلة، فإنگلترا وأمريكا أصبحتا تشبهان السويد سنة بعد أخرى. لكن ماهو واضح أن هناك موقفاً متكلفاً تجاه الجنس في أمريكا وبريطانيا قد يكون سببه موقع المرأة في هذين البلدين، فالحديث عن الجنس يأخذ مساحة كبيرة، والتفكير فيه مساحة أكبر، لكن الممارسة الفعلية أقل بكثير من الحديث، وهذا مرجعه إلى موقف الأمريكيين من المرأة والميل إلى اعتبارها مساوية للرجل وهي تعلم أنها أقل منه، وأنه يهدف إلى أن ينالها جنسياً ويضيف ذلك إلى انتصاراته، فهي تحاول تعويضاً لذلك، أن تضع عذريتها في مكان عالٍ، لكن كل ذلك لن يفيد.

اعتادت الهند واليابان ودول شرقية أخرى أن تعامل النساء كأملك خاصة أو عبيداً، لذا لم يكن هناك من يعترض على أعمال الكوماسوترا أو التاوية أو حتى الروض العاطر، وهي أعمال كلاسيكية في فن ممارسة الجنس، ولم تطبع هذه الكتب على نطاق واسع في بريطانيا وأمريكا إلا حديثاً، وباعتبارها من الكلاسيكيات، ولا يجوز طبيب هنا أن يكتب كتاباً مفصلاً في ممارسة الجنس كما هو مفصل في الكوماسوترا الهندية مثلاً.

لكن الأمر تغير، الهند واليابان أصبحتا أكثر تكلفاً تشبهاً بالغرب، بينما بلاد الغرب بدأت تأخذ جانب الصراحة، وهكذا فإن الشرق والغرب يعطي كلا منهما الآخر، بعض المواقف تجاه الجنس. ستصبح المرأة في الشرق أكثر أهمية، حيث تتحسن فرص التعليم، وبدأنا ندرك في الغرب أن الإحتشام ليس علامة على حضارة متطورة، وأن الحرية الجنسية بدرجة ماء ليست دلالة على الإخلال.

خذ مثلاً رواية غربية نموذجية مثل رواية هوثورن "الحرف القرمزي" وتدور أحداثها في ولاية أمريكية في القرن السابع عشر. الحبكة تدور حول "هستيرين" وعملية زنا قام بها كانت نتيجة ابنه ذكية. وشاع أن والد الطفلة المجهول هو قسيس القرية، والرواية تتحدث أساساً عن الضمير المعذب للقسيس الذي قاده أخيراً للإعتراف بخطيئته على الملأ.

مازال القارئ الأمريكي والإنجليزي يستمتع بشغف بهذه الرواية برغم أنها تبدو قديمة الطراز. القارئ الهندي أو الياباني سيجد لها غير مفهوم تقريباً إلا من ناحية الفضول التاريخي.

هل سنكون أفضل لو كان سلوكنا الجنسي مثل ذلك الذي في "الحرف القرمزي"؟ قليل من المتعصبين والمحافظين سيحيون بالإيجاب. لكن معظم الناس سيرون أن هذا النوع من السلوك لا يجدي في عصر الفضاء والقنبلة الهيدروجينية. ومن الأفضل أن نفهم موقف الهنود واليابانيين في هذه القضية.

إن أخلاقية "الحرف القرمزي" جزء من عقلية محدودة شديدة الضيق، ورفض هذه الأخلاقية لا يعني أننا اخترنا الشر واللاأخلاق.

إن العالم أصبح أصغر مما كانت عليه مدينة كبيرة قبل ثلاثمائة سنة، فإذا كنا نهتم بعالمنا فذلك سيكون لصالحنا.

إن المشاكل الجنسية التي أتناولها في هذا الكتاب، هي موضوع جانبي من مشكلة أكثر أهمية تؤثر في الجنس البشري كله في هذه المرحلة من تاريخه.

إن البشرية تتقدم بسلسلة من القفزات الخرقاء، والأدهى أنها لا تترك بالضبط مدى التقدم الذي أحرزته.

المسيحيون القدماء لم يعرفوا بالضبط لماذا يتصرفون بعنف ضد دين روما القديم. وفهموا السبب بعد ذلك. ومثال غوذجي لما أعنيه هو "إسحق نيوتن" مؤسس العلم الحديث، لقد قضى معظم وقت فراغه في كتابة تعليق ضخيم حول "كتاب دانيال"، واعتقد أن ذلك أكثر أعماله أهمية، وهو الذي فعل الكثير لتحطيم تعنت الدين القديم.

بإختصار: كان الإنسان البدائي الذي يشبه القرد ليس لديه وقت ليفكر في أي شيء سوى الطعام والمأوى. ثم جاء الرجل المتحضر ومعه وقت الفراغ، فاستخدم قوته الإضافية في شن الحروب على جيرانه، ثم جاء الإنسان الذي تتعطش روحه إلى عمل أكثر من الحرب وحرث الأرض، ووضع أمامه هدفاً أن يترك وراءه طبيعته الحيوانية، ثم جاء رجل العلم وحطم عناصر الخرافة والتعنت. هذا التغيير كان هائلاً حتى أن الإنسان مازال يتعافى من الصدمة.

لكن علامة الإستفهام الكبرى التي تواجهنا: ماذا الآن؟.

الفصل الثاني

مشكلة الإنحراف الجنسي

لا بد أن نواجه الآن، مشكلة تبرز بشكل طبيعي من الفصل السابق، وهي مشكلة الميل إلى نفس الجنس عند الرجال خاصة، والانحرافات الجنسية الأخرى بصفة عامة.

وهو موضوع لا يبعث على السرور، ولكن ما لم تكن تعيش في دير منعزلاً عن العالم، فإنك ستواجه هذه الانحرافات بشكل كبير في العالم الحديث، وبالتالي فمن المهم أن تفهمها.

نحن نميل أن يكون لدينا فكرة محددة جداً عما هو طبيعي Normal وما هو غير طبيعي أو غير عادي Abnormal في الجنس.

فنحن نرى أن من الأمور العادية أن يقع رجل وامرأة كل منهما في حب الآخر، وأن يتزوجا ويكونا عائلة. وإذا أعجب الزوج بسكرتيرته الحسنة في العمل، وأغواها وأقام معها علاقة جنسية، فإن هذا الأمر مازال أيضاً ضمن الأمور العادية، رغم أنه عمل غير محبب. ولكن إذا أثار الغلام الذي يخدم في المكتب اهتمام الرجل جنسياً، فهذا بالتحديد يُعتبر من الأمور غير العادية.

هذه هي نظرتنا للطبيعي وغير الطبيعي في الجنس.

ولقد حاولت أن أبين أن أسلافنا البدائيين لم تكن لديهم رابطة الزواج التي نعرفها اليوم، وفي الواقع لم يكونوا يعرفون شيئاً عن نظام الأزواج والزوجات، وكانت نساء القبيلة تنجب الأطفال دون أن تكون لديهن فكرة عن كيفية حدوث ذلك، وكان رجال القبيلة ينظرون إلى الجنس كتسليّة ممتعة بعد الصيد، ويختارون لمتعتهم المتوفر أمامهم من النساء. *

وهذا يشير إلى أن ما نسميه بالعلاقة العائلية العادية الطبيعية، قد لا تكون في ذلك الوقت أمراً عادياً أو طبيعياً عند الجنس البشري.

ورأينا أيضاً أن الرومان واليونان كانوا يصرون على الإخلاص في العلاقات الزوجية لأسباب اجتماعية وليس لأنهم بالطبيعة رجال يقدسون الروابط العائلية.

إذن، فلنتكلم بحرص حين نتحدث عما هو عادي أو طبيعي بالنسبة للغريزة الجنسية. فقد نخلط بين العادات - أي ما اعتاده المرء - وبين طبيعة الغريزة الجنسية.

حين ننظر للأمور دون تحيز، فإن الشيء الوحيد الذي نراه طبيعياً هو وجود الدافع الجنسي لدى البشر. وهو في أساسه دافع أناني. وأعني بذلك أنه يشبه دافع الحاجة إلى الأكل، أو إلى الدفء في يوم بارد، أو إلى النوم حين يكون المرء متعباً. وهو دافع يشترك في الكثير مع هذه الدوافع، بأكثر من اشتراكه مثلاً مع دافع الأم لحماية طفلها. ولا بد أن نعترف بأن الدافع الجنسي عند البشر يمتزج بالخيال بدرجة يصعب فيها الفصل بينهما. ولكن يمكن رؤية هذا الدافع بشكل نقى واضح عند الحيوانات. أحياناً قد يتشبث كلب بمخالبه بساق شخص ماء، ثم يبدأ في التحرك حوله في حالة واضحة من التهيج الجنسي، ويمكننا رؤية القرد في حدائق الحيوان تمارس العادة السرية، وتحاول ممارسة اللواط مع قرد أخرى. القرد والكلاب مملكتا القليل جداً من الخيال، ولقد كشفت البحوث أن القرد لا يستطيع أن يحتفظ في ذاكرته بصورة ذهنية فترة طويلة ليفكر فيها.

إذن من العدل أن نعترف أن الدافع الأساسي في الجنس هو دافع اللذة والمتعة بالضبط كرفع يدك لتندفأ بالنار. فالأعضاء الجنسية تراكم نوع من الكهرباء الساكنة - طاقة جنسية - ثم ترغب في تفريغ هذه الشحنة، فتكون مثل المسلسل المشعوب، ينتظر شخصاً ما ليشد الزناد. هنا يتدخل الخيال البشري في اختيار من أو ما يشد الزناد، عن الحيوانات لا توجد مشكلة، فأشئ الحيوان تفرز رائحة

معينة من غدد في أعضائها الجنسية، لا يستطيع الذكر من الحيوانات مقاومتها، فيندفع لممارسة الجنس. ولكن البشر فقدوا استخدام هذه الوسيلة منذ وقت طويل. *

وعند مواجهة هذه المسألة بأمانة، فإننا ندرك أن الدافع الجنسي عند البشر قد قام على دوافع لا علاقة لها ذات علاقة ضيقة جداً بالحب، وأن الذي يلعب الدور الأكبر في هذا الدافع هو "المنوع".

في مسرحية شكسبير "إغتصاب لوكريس"، يصف لوكريس كمدينة مسورة، ورغبة "تاركوان" دخول هذه المدينة الجميلة، هذه الجملة تلمس شيئاً أساسياً في الدافع الجنسي الذكري.

وفي رواية "دكتور فاوست" لتوماس مان، هناك حوار بين شخصيتين حول موضوع الزواج، وتسخر احدهما من مراسم الزواج بالقول "هذان الشخصان سيصبحان جسداً واحداً" مشيراً إلى أنهما إذا أصبحا جسداً واحداً فسيفقد كل منهما الاهتمام بالآخر.

فالجنس يعتمد على عدم الألفة، على فكرة المنوع.

لو أدركنا ذلك، لفهمنا معنى كل الانحرافات الجنسية. فكل شيء يعتمد على ما يحدث أن تراه ممنوعاً أو غير مألوف. عمل "توماس مان" السابق يكشف عن افتتانه بفكرة العلاقة المحرمة بين أخ وأخت، قد يكون ذلك بسبب أنه لم يكن له أخت. فمعظم الأخوة والأخوات يجدون بعضهم البعض غير جذابين جنسياً، والسبب بالتحديد أن عدم الألفة غير موجود هنا. فهم يألّفون بعضهم بشكل كبير، وينطبق هذا بشكل واضح على الجنسية المثلية، فالرجال العاديون لا يثيرهم الرجال الآخرون لأنهم يشبهونهم بدرجة كبيرة، لكن لنفرض أن شخصاً ما كان في مدرسة داخلية حين تفتحت غريزته الجنسية، فإن عنصر "المنوع" في المداعبة الجنسية مع أولاد آخرين، قد يثيره بالدرجة نفسها التي تثير فيها فتاة إنساناً عادياً، وحين ينوّم الخيال بفكره المنوع فإنه يكتسب ذوقاً جديداً دائماً.

هذا هو النوع المكتسب من الجنسية المثلية، وهناك بالتأكيد نوع آخر وهو في أصله ناتج عن سبب عضوي جيني.

لقد اعترف "روبرت كويل" وهو رجل تحول إلى أنثى، بأنه برغم عدم انجذابه للرجال حين كان رجلاً، إلا أن ذكوره العدوانية وكرهيته للشواذ كانت محاولة للتعويض عن ميوله الحقيقية.

وحين يكون الأمر متعلقاً بالتكوين الجيني والهرموني للمرأة، فإن الأمر يصبح سهلاً على الفهم. وسيصل العلماء بالتأكيد للأسباب التي تدفع الإنسان بأن يولد محباً للجنس نفسه. لكن ذلك لا يهم بصفة خاصة، فالمصابون بالجنسية المثلية (المقصود بها العلاقة البدنية بين ذكرين، وصورها عديدة وليست مقصورة على الواقعة الجنسية كما يتصور الكثيرون، فالعناق والتقبيل والاستعراء وتبادل الاستمناء باليد أو الفم كلها صور مختلفة للجنسية المثلية) هم على العموم لا يسببون أي أذى للآخرين، وهم يميلون لأن يكونوا أذكاء وفنانين، ونسبة كبيرة من ثقافتنا، وصناعة الترفيه والتسلية

لدينا يعود الفضل فيها إليهم. فإذا ذهب إلى السينما أو المسرح أو شاهدت التلفزيون فهناك احتمال كبير بأنك تشاهد شواذاً، وأن الفيلم أو المسرحية أو العرض المقدم قد كتبه أو أخرجه واحد منهم.

وكثير من الفتيات قد أصبن بالذعر حين اكتشفن أن معبودهن شاذ جنسياً، يميل الشواذ أن يكونوا اجتماعيين، عيين للحياة، ويحبون الآخرين، وقيمون أهمية كبيرة لعلاقاتهم الشخصية. كل هذا يعني أنهم يضيفون نسبة كبيرة من التنوع لحياتنا الاجتماعية.

هناك للأسف جانب سلبي لهذه الظاهرة، فمن الصعب التخيل أن يكون هناك بيتوفن شاذاً أو إسحق نيوتن شاذاً، فالشواذ كقاعدة عامة لا يخرج من بينهم فلاسفة أو علماء، لأن قليلاً منهم يمتلك ذلك التركيز التام غير الشخصي للمعرفة، لكن ذلك بالطبع ليس أمراً حاسماً. يمكن أن نذكر الكثير جداً من الفنانين والشعراء والأدباء والموسيقيين الشواذ، لكن نادراً ما تجد عالماً أو فيلسوفاً منهم. على كل حال فهم يلعبون دوراً مهماً جداً في حياتنا الثقافية حيث يخلقون جواً يساعد على العمل الإبداعي. وهناك الكثير من المبدعين - في الفن والأدب والعلم - يدينون بدرجة كبيرة لعطف وتشجيع الشواذ في فترة ما في حياتهم.

ومن حسن الحظ أن المدرسة القديمة التي ترى أنه لا بد من جلد كل الشواذ، تموت بسرعة الآن، وقد نعيش إلى اليوم الذي نرى فيه الموسوعات تكتب أمام الشخص شاذ أو غير شاذ. ✕

إذن فليس من الموضوعية أن نضع الشذوذ الجنسي ضمن الإنحرافات الجنسية، فاليوم، لا يعتبر الشذوذ في الغرب عملاً شائناً، ولا يوجد سبب لأن نعتبره كذلك!؟

كان الاعتراض القديم أن الشذوذ لن يعمر الأرض، ويقلل الإنجاب، وهذا حقيقي، لكن في أيامنا هذه التي نعاني منها من الانفجار السكاني، فذلك غير مهم. إن اليوم يقترب الذي نعترف به أن العالم ينقسم إلى ثلاثة أنواع: الذكر والأنثى والشاذ.

هناك انحراف جنسي غريب، وهو ميل بعض الرجال لارتداء ملابس النساء، قد يرى البعض أن هذا الانحراف له علاقة بالجنسية المثلية، ولكن في الحقيقة لا علاقة له بذلك.

مفتاح هذا الانحراف، يقع مرة ثانية في خانة ماهو "ممنوع"، حيث تنتاب الشخص رغبة مرضية غامضة أن يكون هو الشيء الممنوع، وأن يمتلكه أيضاً.

إذا حاولنا استخدام الخيال لفهم رغبة رجل ما، وأحياناً رجل واضح الذكورة، في ارتداء ملابس النساء، فإننا نبدأ في فهم شيء جوهري حول العريضة الجنسية.

في محادثة أفلاطون "المادية" يروي الكاتب المسرحي "أريستوفان" أسطورة كوميدية عن كيفية وجود الجنسين الذكر والأنثى. يقول إنه في وقت من الأوقات كان هناك نوع واحد من البشر، مخلوقات كروية بأربعة أذرع وأربع سيقان ورأسان. وأصبح البشر أقوياء مما أزعج الآلهة، فقرروا أن

يقللوا هذه العوة بقطع الإنسان إلى نصفين، وهكذا يقضي البشر وقتهم كل يبحث عن نصفه، ولا يعود لديهم الوقت لتحدى الآلهة.

طبعاً هذه أسطورة، لكنها توضح شيئاً مهماً عن الحالة البشرية، فأقوى الدوافع في حياتنا هو الدافع الجنسي، وكل الفن العظيم تقريباً ينبثق عنه. وهو الذي يعطينا الإحساس بالهدف والغاية أكثر من أية تجربة نمر بها في حياتنا اليومية. وتكشف لنا بعض قصص "حي دي موباسان" أن هذا مافتنه في موضوع الجنس. قد تكون الحياة رغبة ولا معنى لها، بحيث أننا حين نقرأ عنها نميل إلى القول "حقاً أن الحياة نكتة سخيفة"، ومع ذلك ف وراء هذا اللا معنى الواضح هناك هذا الفيض الهائل من الهدف الغريزي الذي نخبرنا بأن الحياة ليست بلا معنى، ولكن لغباء الإنسان الشديد فهو لا يرى هذا المعنى.

لم يكن موباسان فيلسوفاً، ولكنه يسجل بأمانة ملاحظته: العبث الواضح للوجود الإنساني، ثم هذه القوة الجنسية الكبيرة التي يبدو أن لها هدفاً خاصاً بها تسعى إليه ولا ندركه.

وقد حاول "أرستوفان" أن يوضحه بأسطوريته.. ولكن كيف نفسره؟ كيف نفسر الرغبة عند البعض في إرتداء ملابس النساء؟

حين يحاول العقل فهم المشكلة، فإنه يجد نفسه يتحسس في الظلام، ومن الواضح أنه يتحسس اللغز الأساسي في الوجود الإنساني. وهذا قد يفسر لنا لماذا ربط القدماء بين الجنس والدين، قد لا يكونان متطابقين، لكنهما يشتركان في الكثير جداً.

الجنس يجعلنا نعي أن الإنسان ليس مخلوقاً منطقياً وعاقلاً، إن هناك قوة تدفعه لا يفهمها.. إنه نوع من العرائس الدمي، لكن من الذي يشد الخيوط؟

سنعود لهذه القضية مطولاً في فصل قادم.

ونبدأ بالحديث عن الإنحرافات التي من المرجح أن تقابلك وأنت تقرأ حريدة الصباح.

أولاً: هناك الإثارة الذاتية الناتجة عن حب النفس. ويجب ألا نخلط بينها وبين العادة السرية، الإثارة الذاتية تعني بها الشخص الذي يستثار جنسياً برؤية جسده نفسه.

وهذا يرجع عادة إلى نوع من التربية والنشأة، أصبحت الآن نادرة. وذلك حين يقود الوالدان الطفل إلى الاعتقاد بأن هناك شيئاً ما بذئ وشائن في الجسد البشري العاري. وهكذا يثيران به اهتماماً سقيماً بالعري.

ثم هناك الشبق الذاتي وهو يرتبط بالتلصص على الآخرين وهم عراة، وممارسة العادة السرية في الوقت نفسه. ويرجع هذا الإنحراف أولاً إلى الإحباط، ثم إلى التربية السيئة، في إفهام الطفل بأن كل مايتعلق بالجسد والأعضاء التناسلية سيئ وبذيء.

ومن بين الإنحرافات الجنسية المرضية "الفيتيشية". معنى أن يستثار الشخص جنسياً من شيء مادي يرتبط بنهجه بالجنس أو بتجربة حسية مبكرة في الطفولة.

في أواخر القرن الماضي كان من الشائع أن تكون "مشدات الخصر" الخاصة بالسيدات سبباً في الإثارة الجنسية عند البعض، حيث كانت المرأة ترتدي عادة مشدّاً على وسطها على اللحم مباشرة، في الوقت الحاضر يبدو أن المشد قد اختفى تماماً، وبالتالي اختفى هذا التعلق الجنسي به. وقد كان المشد بالنسبة للمرأة في العصر الفيكتوري سراً تفضل الموت على أن تكشفه، ولذلك أصبح يشير عواطف جامحة في الذكور. في القرن العشرين أصبحت "كلاسين النساء والشورتات" من أكثر أنواع الفيتيشية انتشاراً، حيث يمارس الذكر العادة السرية وهو يمسك بهذا الجزء من الثياب.

ولكن هناك العديد من الأشياء التي قد تستخدم "كفتيش" لممارسة الجنس، من المناديل النسائية إلى الأحذية، بل أن بعض أعضاء جسد الأنثى كاليد أو القدم تسبب إثارة عند البعض.

وبالرغم من صعوبة فهم هذا الإنحراف في أول الأمر، فإن قليلاً من التفكير يجعله واضحاً.

إذا كانت صورة فتاة عارية تستثير الرجل جنسياً، فلم تبقى إلا خطوة واحدة، حتى يستثار بمنظر ملابس تحتية أنثوية معلقة على حبل غسيل. ومن هنا يمكننا أن نفهم لماذا يستثار أناس معينون من أي شيء يرتبط بشكل أو بآخر بالرغبة الجنسية عندهم.

والشيء الغريب في هذا الموضوع أن "الفتيش" غالباً ما يصبح أكثر أهمية من مارسة الجنس العادي. وقد أشار عالم النفس "ستيكل" إلى حالة رجل كان لا يستطيع ممارسة الجنس مع زوجته إلا إذا كانت ترتدي مريلة لها رائحة الحليب. وقد كشف التحليل النفسي أن هذا ارتبط بمرضه كانت تمرضه في صغره وكانت تلعب له في أعضائه التناسلية وكانت ترتدي مثل تلك المريلة.

حين نحلم في منامك، يمكن أن تحدث أكثر الأشياء جنوناً ولا تلاحظ أنها نوع من الجنون وأنت تحلم، إنها تبدو طبيعية تماماً. وهذا يرجع إلى ضعف الإحساس بالعلة والسبب أثناء النوم يعكس ما يحدث أثناء اليقظة.

مارأيك أن البحوث أثبتت أننا لسنا مستيقظين تماماً، ولا نكون مستيقظين تماماً قط، فالأحلام تحيطنا معظم الوقت. أحلام يقظة خيالية، إذن فلا يوجد سبب للدهشة في أن تكون حياتنا الجنسية، في الغالب، مجنونة قليلاً. لو كنا مستيقظين تماماً فلن يحدث ذلك، ولن يكون هناك انحراف جنسي. ولكننا لسنا كذلك، إن الرجال والنساء يجدون واقع الفعل الجنسي مخيباً للآمال إذا قورن بأحلام اليقظة الجنسية. إذن لماذا نهش إذا امتزج الواقع بأحلام اليقظة وأنتج ذلك بعض الإنحرافات الغريبة؟.

هناك إنحراف جنسي، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفيتيشية، ويبحث الرعب في النفس، لكنه نادر وغير مؤذي، وهو ممارسة الجنس مع الموتى.

وقد ذكرت كتب علم النفس الجنسي حالات كثيرة لهذا الإنحراف خاصة بين من يعملون في المشارح وحفر القبور أو ممن تختم طبيعة عملهم التعامل مع الموتى، وقد شرحت ذلك بالتفصيل في كتابي "أصول الدافع الجنسي" - تُرجم إلى العربية عن دار الآداب في بيروت. ه.م. - الحالة الكلاسيكية في هذا الإنحراف، هي حالة الشاويش برتراند الفرنسي الجنسية الذي سجن ثلاث سنوات لنشبه القبور. لقد عانى "برتراند" ألماً شديداً ومتاعب جمّة ليشبع رغبته الجنسية الغريبة، ومع ذلك كان متديناً وحندياً ممتازاً، وفي حالة من الانضباط النفسي القوي، حتى خنق هذا الانضباط عواطفه، وحين وجدت هذه العواطف مخرجاً، انفجرت بقوة البركان، كان محتشماً وخجولاً يخشى السير مع الفتيات. من الصعب أن نتخيل أن تجذب الجثث مهما كانت صغيرة وجميلة شخصيات مثل كازانوف أو فرانك هاريس، لأن مثل هذه الشخصيات المعربة والمنطلقة لا تقع تحت أي كبح أو رادع مع النساء، أن نقدهم لأنفسهم أقل بكثير من نقد "برنارد" لنفسه وبالتالي فهم أقل إحباطاً.

لكن هناك ملمحاً آخر غريباً في حالة "برنارد" يأخذنا إلى بعد أعمق في لغز الدافع الجنسي، كان برنارد دائماً يدمر الأجساد بعد هتك عرضها. وهذا يبعث إلى الذهن بجملة استخدمها "زولا" في روايته "الوحش الآدمي" تقول: "أراد أن يمتلك المرأة إلى درجة تدميرها".

وهذا يصدمنا، لأننا نربط دائماً الجنس بالحب والرقّة والعناية ومشاعر حماية نحو المرأة. ولكن فكر في مشاعر شاب صغير في الرابعة عشر أو أكبر قليلاً، وقد أصبح واعياً برغباته الجنسية، لكنه خجول، برغم شدة رغبته لإشباعها. هل هناك أية عناصر للحب أو الحماية في مشاعره هذه؟ بالطبع لا، فهو يرمق الفتيات اللواتي يراهن في الشارع كالذئب يرقب قطيعاً من الأغنام، وإذا قرأ في جريدة موضوعاً عن الإغتصاب، فلن يصدمه ذلك، بل على العكس فهو يميل إلى حسد المغتصب.

هذا المراهق أو الشاب يشبه رجلاً يكاد يموت عطشاً في الصحراء، رغبته في الماء لا تحمل أي حب أو عطف، كل ما يريده هو أن يشربه.

يميل الشباب إلى إبداء الخجل من قوة رغباتهم الجنسية، وهم لا يعترفون بها من تلقاء أنفسهم أو يجعلونها واضحة للآخرين، وما يجري في خيالهم يظل سراً طوال حياتهم. وفي اللحظة التي يتحدث فيها إلى فتاة، فإن رغبته الجنسية تتراجع قليلاً حتى لو لم يشعر نحوها بالحنان أو بالرغبة في حمايتها، لكن عليه أن يتظاهر بذلك إذا أراد الفتاة، يحاول أن يتصرف بشكل متحضر، وإذا كان من النوع المرح فقد يتزوج صغيراً، لأنه يجد رغبة الفتاة في الزواج معقولة. وهو يرغب في أن يرضيها، وهكذا فإن توحش الرغبة الجوهري، يغطي بكل أنواع الدوافع الأخرى بالإضافة إلى التقاليد الاجتماعية. ولكن لو أنصفنا فيجب أن نعترف بأن كل هذا التمثيل لا علاقة له برغبة الشاب، لا يوجد رقة وحب في شهية الذكر الجنسية، أكثر مما يوجد في شهيته من حب نحو طعام عشاء جيد.

والعلاقة الجنسية النموذجية لابد أن يكون فيها تناسب معقول من الرقة والرغبة الجنسية، لكن ليس بالضرورة أن تكون هناك علاقة بين الرقة والرغبة.

وحيث يجب الرجل الجنس لدرجة أن يتزوج، ثم يذهب وهو في الثلاثينيات ليقوم علاقات مع أخريات، فإن الأنانية الأساسية للدافع الجنسي الذكري تصبح أكثر وضوحاً. التكرار يجعله يشعر أن كل النساء في جوهرهن متشابهات، وهو يلاحظهن بروح صياد يمارس لعبته المفضلة، وقد يجد السعادة في الاحتفاظ بتذكارات من كل واحدة.

لكن هذا لا يجعلنا ننكر حقيقة الحب بين الرجل والمرأة، أحاول أن أوضح أن مانسميه عادة بالحب هو في الحقيقة خليط من عدة أشياء أخرى: الرغبة الجنسية، الحماية، الرقة والرغبة في الأمن العاطفي، وأن شهية الذكر الأساسية هي شهية خام ورغبة موضوعية لا ذاتية، بمعنى: "ليست امرأة التي أريدها، بل جميع النساء" باختصار الحب ممكن بين الرجال والنساء، لأن شهية الرجل الجنسية لا تسبب للمرأة أي ضرر، إنه كالنمر يقيم علاقة مع نوع من الظباء السحرية التي يمكن أن يأكلها كل يوم دون أن يسبب لها أذى بالفعل - فهي سحرية - ولاشك أن النمر والظبية سيغرمان في النهاية أحدهما بالآخر، ولكن العلاقة مازالت قائمة في الأساس على جوع النمر وليس على الحب.

وإذا فهمنا ذلك، بدأنا ندرك شيئاً أساسياً عن الانحراف الجنسي وعن الدافع الجنسي نفسه.

رغبة المرأة أن تحب لذاتها وأن تعبد إذا أمكن، وأن تُضفي عليها الحماية، وتُحقق كل رغباتها وأن تعامل كل إنسانة باستمرار، ورغبة الذكر في جوهرها لا تهتم بشئ من هذا، وإن وُجد كل ذلك في علاقته بالمرأة، لكنه يضعف من الرغبة نفسها. وهذا هو السبب الذي جعل من "برنارد" لا يقنع تماماً بالعشيقات الأحياء. هناك الكثير من الذئب الجائع فيه، ولكن حيث يمضي في تدمير الأجساد بعد إنتهاكها، فإنه يعطي إشارة تمرد وتحد تجاه المرأة والمجتمع. إن غريزته الذكورية الخالصة قد انطلقت من عقالها، وغدت زئيراً متمرداً ضد الإحباط الذي فرضه عليه العرف والتقاليد.

ليس معنى ذلك أن هذه قاعدة عامة، إن حالة "برنارد" تغطي جانباً واحداً من حاجة الذكر إلى السيطرة والغلبة. رواية "جون برين" غرفة على السطح تكشف جانباً آخر. وهي رواية مشهورة حتى أنني لا أحتاج هنا إلا للتلخيص فكرتها: بطلها "جولامبتون" انتوى أن يغوي "سوزان" وهي فتاة من الطبقة العليا، في الوقت نفسه تكون له علاقة مع امرأة متزوجة أكبر منه. رغبة جو في سوزان بنيت على أساس أن والدها رجل غني، وهو من الطبقة العاملة، وسوزان تمثل كل ما يريده من الحياة: الجمال والفتنة والتألق والبراءة والثروة. وفي الحقيقة كانت الفتاة فارغة الرأس بلهاء، وحين تزوجها جو لم تكن مخصصة له، وكانت عشيقة جو الأخرى تساوي عشرة من أمثالها، ومشبعة جنسياً أكثر منها، والطريف أن جو لم يكن يحبها ولا يريدها بالرغم من افتتانه الجنسي بجمالها، يريد أن يفترسها

فقط، وهذا دليل أن شهية الرجل الجنسية غريزة إجرامية، غريزة عدوانية تجاه المرأة، هو لص وهي بيت يريد السطو عليه.

إن موقف الرجال تجاه الجنس يختلف عن موقف المرأة تجاهه. معظم النساء تشعرن بكراهية شديدة غريزية للمجلات الجنسية التي تنشر صوراً عارية للرجال (علقت زوجتي على إحدى هذه المجلات بأن الرجال فيها يشبهون قطعاً من الماشية)، كما أنهم لا يشتريين هذه المجلات. السوق الأكبر لهذه المجلات وسط الشواذ.

قد تكون المرأة مهتمة بالجنس كالرجل، ولكن ذلك الاهتمام يختلف بدرجة كبيرة وبشكل شخصي عن اهتمام الرجل.

* * *

السادية:

وهذا يقودنا إلى أكثر حالات الإغتراف بشاعة، ولكن من أكثرها أهمية لدراسة الطبيعة الإنسانية.. وهي السادية. ولقد اشتقت السادية اسمها من رجل غريب ضئيل الجسم، يسمى "دونانين دي ساد" ولد في فرنسا سنة ١٧٤٨.

إن اسم الماركيز دي ساد يبعث في الذهن صورة مختلطة من فرنكشتاين ودراكيولا، شخص بعينين جمرائين وأسنان مديبة. وهذا خطأ يشبه الخطأ الذي يجعل الناس يظنون أن "كازانوف" يشبه أبطال السينما، بينما هو في الواقع محتال قبيح الشكل لكنه واثق بنفسه.

كان دي ساد بدين الجسم قليلاً، ورجل متملق مداهن قدر التفكير - ولقد اشتكى سحائنه من قذارة حواراه وأحاديثه في سنواته الأخيرة - كما أنه لم يفعل شيئاً شريعاً جداً، إلا إذا اعتبرت كتابة كتب تصدم القارئ عمداً، نوعاً من الجريمة. وأسوأ ما أتهم به هو أنه سدّد عدة طعنات لامرأة بسكين، وصب شمعاً ساخناً في هذه الجروح. عمل قدر لكن إذا قورن بما يفعله غيره فهو هين.

سر الماركيز دي ساد هو رغبته في أن يصدّم الآخرين. إن لديه عقلية ممتازة، وكان غنياً وضعيفاً أمام شهواته بشكل شديد، لم يجد أفضل ما يفعله في حياته المبكرة سوى قضائها في بيوت الدعارة، وأوقعته قضية الشمع الساخن في متاعب مع القانون في سن مبكرة نوعاً ما، وكان قد احتطف السيدة التي كانت تعمل طبّاخة. ومنذ ذلك الوقت، نادراً ما تخلص من متاعبه مع القانون، وسرعان ما اتخذ موقفاً متمرداً وعدوانياً من المجتمع كالذي نراه في جنوح وإحرام الغلمان. ولقد كتب سلسلة من الكتب أعتبرت صفة في وجه المجتمع منها جو ستين، وجولييت، ومائة وعشرون يوماً في سدوم وغيرها. وكان يسعد في إظهار الأشخاص المهمين كالقضاة والقساوسة ونظار المدارس، وهم يرتكبون جميع أنواع الجرائم الجنسية، ومن الواضح أنه كان يكره النساء الفاضلات أيضاً، وروايته

الجوستين" هي عمل تأري طويل منهم، فالبطلة الفاضلة تغتصب كل صفحتين، بالإضافة إلى أن الرواية هجوم على نفاق المجتمع، يقول "الفضيلة ليست دائماً انتصاراً، بل هي تقود عادة إلى الأسوأ، وانتصار الفضيلة كذبة اخترعها النصابون الذين يديرون المجتمع ليضحكون بها على الفقراء ليظلوا هادئين".

في روايته التالية "جولييت" عكس دي ساد وجه العملة، فهو يروي نجاح أخت جوستين لشريرة. كثيرون يعجبون بدي ساد، ويعتبرونه كاتباً مهماً، وأنه نوع من الشخصيات المتمردة مثل شيطان ميلتون، لكن لو وقعت في يدك نسخة من كتابه "مائة وعشرون يوماً في سدوم" ستري لماذا يبدو هذا القول نوعاً من الرغبة في أن يكون حقيقياً. هذا الكتاب تعتمد أن يكون قذراً لدرجة أنه لا يمكن طباعته وبيعه علناً حتى الآن في إنجلترا وأمريكا.

يحدثنا هذا الكتاب عن مجموعة من الرجال الكبار في السن، اجتمعوا في بيت ريفي وقرروا أن يمارسوا كل أنواع الغواية الجنسية في مائة وعشرين يوماً، بمساعدة جيش صغير من الغلمان فائق الجمال، والفتيات الفاضلات الصغيرات، وقد احتطفوا جميعاً، الدوق الذي يقود هذه الحملة وُصف بأنه أحد أكثر الرجال شراً في التاريخ، فقد قتل أمه وأخته وثلاث من زوجاته.

لا يمكن وصف الكتاب بأنه كتاب جنسي، فهدفه ليس الإثارة الجنسية، بل التمرد وبعث الغثيان والإشمئزاز في النفس. ربما أكثر قصص الكتاب معنى، هي التي تحكي عن رجل متعته الوحيدة إغواء الأبرياء دون أن يكون له اهتمام جسدي بهم، بل كل رغبته أن يدفعهم إلى الإنحراف، وهو يتحدث لبق يتبع أسلوب الواعظ الديني المتحمس، وحين يقنع البعض في السير في طريق الدعارة فإن ذلك يقنعه، ويبدو شبيهاً بدرجة كبيرة لدي ساد نفسه.

الشئ الوحيد الذي تخرج به من الكتاب هو العدوانية الهائلة لدافع الذكر الجنسي، هنا يعرّي هذا الدافع تماماً.

لم يعيش دي ساد ليكمل الكتاب الذي اكتشفت مخطوطته بالمصادفة، والجزء الأخير منه مكتوب بشكل ملاحظات فقط.

ولكن يبدو أن كل المختطفين قد ذبحوا أخيراً ليشبعوا شهوات ثلاثة من الفاجرين، ومن الأفضل أنه لم يكمله، فإنه بعد الصفحات المائة الأولى يصبح كتاباً مربعاً. إنه كفيلاً بأن يصدم أكبر متحمس للكذب القذرة (لقد أعرته مرة لعضو في نادي الأدب الجنسي، حيث يتبادل الأعضاء هناك نماذج مكتوبة من المخطوطات الجنسية القذرة، فأعاده إلي مرتبكاً واعترف بأنه لم يستطع قراءة سوى الصفحات القليلة الأولى).

لقد أصردى ساد أن يحدث صدمة لمن يقرأه، ولو كانت لديه شجاعة كافية فلربما أصبح فوضوياً يتعامل بالقنابل، ومع ذلك فهناك منطق جنوني عند دي ساد يذكرنا بالهمجي الذي حطم جهاز الراديو ليكتشف من أين تأتي الأصوات، ثم حين لم يجد شيئاً، مضى يحطم كل صمامات الجهاز.

نرى ساد مع كل ذكائه فشل في أن يرى ماهو واضح تماماً: إن المتعة تتوقف أن تكون متعة لو دفعناها إلى حدود معينة. فكأس الويسكي تُنعش المرء وتبعث فيه إحساساً بالراحة، الزجاجة قد تجعلك مريضاً، أما إذا شربت زجاجتين بسرعة فستموت.

يتمتع دي ساد في عصرنا بشعبية معينة، وهناك نقاد محترمون كتبوا كتباً عن أفكاره، لكن يجب أن نعرف أن شعبيته تعود إلى ذكائه لا إلى ساديته.

معظم الساديين الذين عرفهم التاريخ - تاريخ الإحرام - كانوا أغبياء ومتوحشين وقساة. وكلما ازدادت درجة الغباء، أصبحت السادية خاضعة لقانون العوائد المتناقضة.

خذ مثلاً حالة القاتل في ضوء القمر، التي حدثت في ولاية تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية، اقترب هذا الرجل من عربة فيها رجل وامرأة يتغازلان، شد باب العربة فجأة ففتحه، وأفقد الرجل وعيه بضربة مسدس على رأسه، ثم طارد الفتاة وألقاها على الأرض بقوة واغتصبها.

تجربة غير سارة، لكن على الأقل نفدا بحياتهما ولم يحدث لهما مكروه سوى كدمة في رأس الرجل. وبعد شهر فاجأ الرجل نفسه زوجين يتداعبان في عربتهما على بعد ميل من مكان الحادث السابق، هذه المرة أطلق الرصاص على رأس الرجل، وجرت المرأة خارج العربة، وحين اكتشفت جثتها المضروبة بالرصاص أيضاً، وجد أنها قد أغتصبت وقتلت بعد ساعتين. بعد شهر آخر، ركن رجل وزوجته عربتهما في المنطقة نفسها بعد حفلة رقص، وقد أطلق الرصاص على الرجل من الخلف ثلاث مرات، وجرت الفتاة الصغيرة من العربة، وقال الطبيب الذي فحصها أنها عذبت لمدة أربع ساعات ثم أغتصبت قبل أن تُقتل.

حاول هذ المحنون أن يرتكب جريمة أخرى، فأطلق النار على مزارع من خلال نافذة البيت، كما أطلق النار على زوجة المزارع، اندفعت الزوجة للخارج لتستنجد بالجيران، فهرب الرجل ومات المزارع متأثراً بجراحه، ولم يُسمع عن المحنون ثانية، ولكن بعد عدة أيام انتحر رجل غريب عن المنطقة بالقفز تحت أحد القطارات، ووجدت بالقرب عربة محترقة توافقت مواصفاتها مع سيارة القتل. قد تكون مصادفة لكن على الأرجح هي سيارته.

لو نظرنا إلى هذه الحالة بإمعان أكثر، لوجدنا الرجل يندفع أكثر وأكثر إلى الجحيم. في البداية كان محبباً جنسياً فقط، وأشبع رغبته بالعنف. لكنه أصبح يرى نفسه كنوع من الذئب، وحين ينظر إلى الناس في الشارع، أو يشربون في البار، يقول لنفسه: "لو قرأوا ما في ذهني فسيفتلوني ككلب

مسعور"، شعر بأنه منبوذ، ولكن أصبحت رغبته الجنسية أقوى، لو فكر فيها بعقل لأدرك أن ليس هناك فرق حقيقي بين النوم مع عاهرة وإغتصاب فتاة غريبة، فالجسد الأنثوي هو نفسه، وما يفعله هو الشيء نفسه. ولن يستطيع أن يفعل أكثر حتى لو نام مع ملكة سبأ، ولكنه غير قادر على التفكير السليم. الشعور بالإنثم أو الذنب أعمى بصيرته، وجعل منه كتلة من العواطف المنفلتة، تشبه العطش الذي يسوء ويشتد وإذا لم يُروَ بالماء القراح فلن يرويه شيء، لكنه لا يدرك ذلك، ويسعى إلى إشباعه بالفعل العدوانى تجاه المرأة. وهكذا، في الحالة الثانية يمارس عنفاً أشد، ويقتل المرأة بعد ساعتين، ولم يكن هذا كافياً أو مشبعاً له، وحاول أن يمضي أبعد من ذلك، فعذّب الفتاة مدة أربع ساعات، ولكن كان الأمر كمن يريد أن يروي ظمأه بالبنزين، كل ما فعله يزيد من شعوره بأنه وحش اجتماعي منبوذ، ولم يعد قادراً على إقامة علاقة إجتماعية عادية مع أي أحد، فماذا عليه أن يفعل الآن؟ من الصعب المضي أبعد من ذلك، فكل حادثة تزيد من فرص القبض عليه - آنذاك تسليح كل الرجال في المنطقة واستحجوب البوليس آلاف الرجال - ربما فكر في الانتقال إلى منطقة أخرى، لكنه إذا ارتكب حوادث مشابهة فلن القبض عليه سيكون سهلاً لأنه غريب، وأخيراً لم يجد حلاً سوى الانتحار.

حالة حاك السفاح تقريباً مشابهة، كان السفاح مجرمًا مجنوناً أرعب شرق لندن، وكانت جرائمه أكثر بشاعة من جرائم القاتل في ضوء القمر، فقد كان يستخرج من ضحاياه أجزاء معينة من أعضائهم الداخلية، لكنه كان يقتلهم بسرعة دون تعذيب. وإزدادات حالته سوءاً، وأصبح تقطيع الأعضاء متقن في جريمته الثانية والثالثة، ثم قتل امرأتين في ليلة واحدة، ثم قتل امرأة داخل بيتها، وقضى عدة ساعات يقطع أعضائها، وبعد ذلك لم يسمع عنه أحد. وحتى هذا اليوم لا يعرف أحد أدنى فكرة عن حاك السفاح، لكن من المستحيل ألا نشك أنه إما انتحر أو حُنّ تماماً وقضى بقية حياته في مصحة عقلية دون أن يشك أحد أنه السفاح.

لو فكرنا في مثل هذه الحوادث، فسنعرف شيئاً عن أنفسنا لم ندركه من قبل. نحن نشعر أننا ننتمي للمجتمع الإنساني، وهذا يجعلنا عقلاء متوازنين نفسياً، ولكن هل ندرك درجة قربنا جميعاً من الجنون؟ نحن نظل عقلاء لأننا لسنا مغامرين بما فيه الكفاية. ونادراً ما نسأل أسئلة تجعلنا ندرك كم هو كبير وموحش هذا الكون، نحن نظل ضمن حدودنا الضيقة الصغيرة واهتماماتنا الضئيلة، نأكل حين نجوع، وننام حين نعيب، ونظل دائماً على بعد عن الحواف الخارجية للوجود. لكن هؤلاء المجرمين الجنسيين، ذهبوا بعيداً وتجاوزوا الحدود وتخطوا الحافة.

لقد اكتشف علماء الحيوان أنك إذا ربيت ككوتاً دون أي نوع من الحنان أو التعلق بشيء في الأسابيع الأولى من حياته، فسيصبح عاجزاً تماماً عن التعلق بأحد بعد ذلك ويتوقف عن احتياجه لأحد.

وإذا أخذت الككوت وعمره يوم واحد، ووضعت في قفص به سلحفاة، فيسيعتبر هذه السلحفاة أمه، وسيرتبط بها بشدة رافضاً تركها، إنه يحتاج في أسابيعه الأولى إلى حنان الارتباط بشيء ما، حتى

أنه يتعلق بأي مخلوق يزوده بالطعام والصحة. لكن إذا لم يحصل على ذلك، فسيموت شئ داخله، وسيكون دوماً غريباً عن المجموع. وهذا صحيح في جميع الحيوانات. إذا حُرِمَ فأر صغير من حنان الارتباط بأحد، ثم وضعته في قفص مع عدة فئران فسيصبح مجرماً، رافضاً اتباع القواعد الاجتماعية لمجتمع الفئران ويصبح لصاً ومغتصباً.

وهذا ينطبق على الإنسان أيضاً، فمن المفروغ منه أن القاتل في ضوء القمر لم يكن لديه أي حنان أو ارتباط بأحد في طفولته المبكرة، وربما تربى في ملجأ للقطاء. وإذاً فإن هذه الخيوط الدقيقة التي تجعل معظمنا في حالة عقلية سليمة، لم تكن موجودة لديه، والعالم بالنسبة إليه قفص ضخم مملوء بالفئران المصممة على أن تعطيه أقل القليل، من المحتمل أنه كان لصاً - من الغريب أن معظم مجرمي الجنس القساة بدأوا للصوصاً حرقاء - ويوماً ما يدور في ذهنه أنه يستطيع سرقة الجنس أيضاً من المجتمع، ويبدأ السقوط لينتهي تحت عجلات قطار.

انظر مثلاً حالة "مارلين مونرو" التي كانت أشهر ممثلة سينمائية في العالم. حين انتحرت سنة ١٩٦٢ كانت في السادسة والثلاثين، جميلة وغنية وكل العالم معجب بها. إذن لماذا تقتل نفسها؟ نجد الجواب في سنوات حياتها الأولى. فهي لم تعرف أباًها قط، فقد هجر أمها بمجرد علمه بأنها حامل (لم يكونا متزوجين على كل حال). كانت أمها مختلة العقل وقد حُنت مماماً بعد ذلك. وهكذا فإن الصغيرة مارلين وأسمها الحقيقي نورما، تنقلت من بيت إلى بيت ورباهها عدد من الآباء، وفي أحد هذه البيوت اعتدى عليها أحد السكان جنسياً وهي في التاسعة من عمرها، كما أنها قضت سنتين في ملجأ للأيتام.

وهكذا فإن تلك الخيوط الجميلة الواهنة كخيوط العنكبوت، والتي تحفظ علينا عقلنا في الحياة العادية، لم تنهياً لها فرصة أن تتكوّن بشكل سليم، ولم تتح لها الفرصة أن تأخذ حياتها كقضية مسلم بها. وحين جاءتها الفرصة لتستقر وتصبح زوجة سعيدة لم تكن قادرة على الوثوق بهذه السعادة، كانت تتوقع أن ينهار كل شئ في أية لحظة، لم تكن تستطيع أن تسترخي، وبشكل ما كانت حالتها العقلية مشابهة لتلك التي للقاتل في ضوء القمر، فهي كانت تريد أيضاً نوعاً من الواقع يكون أكثر عمقاً من الحياة العادية.

كلنا لدينا شخصيات ثابتة، فالثبات أصبح عادة فينا، ولقد اعتدنا أن نثق في الحياة، "مارلين مونرو" لم تستطع قط أن تثق بالحياة على طريقتنا، وبالرغم من أن زواجها من الكاتب المسرحي آرثر ميللر كان سعيداً، وكان الإثنين متوافقين بصفة خاصة، فإنها لم تعامل هذا الزواج كشئ دائم، بدا إنها تواجه إرغاماً ما لفصله نتيجة لنوع من الخوف أن يتكسر.

معلقة كل هذا بالسادية؟ علاقة وثيقة بالطبع. فقد أردت أن أوضح أن الحياة ليست عادية مماماً، وثابتة وطبيعية كما تبدو، في معظم الأحيان كسلتنا هو الذي يجعلها تبدو كذلك.

قد تجيبون "شكراً لله على هذا الكسل"، لكنكم لستم على صواب تماماً، كسلنا قد يقينا عقلاء وسعداء، ولكنه أيضاً يبعدنا عن التفوق والوصول إلى الإنسان الكامل.

مثل آخر، لوسيا جويس، ابنة الروائي الإيرلندي جيمس جويس، التي أصيبت بالجنون. حين كانت طفلة كان جويس دائم التنقل من بلد إلى آخر، وكان عليها أن تتعلم الفرنسية والألمانية والإنجليزية، وضيعت سنوات من عمرها، في كل مرة تتعلم فيها لغة جديدة. كانت تحب أباه وتكره أمها، لكن جويس كان بارد العواطف، محباً للعزلة، ويجد صعوبة في إبداء حنانه وعطفه. في سنوات العشرينيات من عمرها بدأت تظهر عليها بوادر الإنهيار العصبي، قالت لأحد أصدقاء عائلة أبيها بصراحة "مشكلتي أنني أتوق بشدة إلى الجنس". ثم وقعت في حب الكاتب الإيرلندي صمويل بيكيت، وهو أسوأ شخص يمكن أن تقع في حبه فتاة، لأنه هو أيضاً يعاني نوعاً ما من التفكك الحياتي، كان يستلقي مثلاً، طوال اليوم في السرير لأنه لا يجد مبرراً لأن ينهض. وأعلن صراحة أنه لا يمكن أن يحب لأن داخله ميت. وهكذا بسبب حياتها المحبطة، وخيبة أملها في الحب، ساءت حالتها، وأصبحت عنيفة في تصرفاتها. وإن نزلت طريقاً منحدرًا فمن المستحيل أن تتوقف، إنها بالضبط الآلية نفسها التي تجعل من جرائم الإغتصاب تزداد عنفاً، بمجرد انتزاع الخيط الأول فلا يوجد سبب مقنع لترك البكرة سليمة.

تريد الضحية أن تجد الثبات، بإلقاء نفسها بشدة إلى أسفل المنحدر، دون أن تدرك أن في نهاية المنحدر يكمن الموت.

لقد ذكرت حالة لوسيا جويس بسبب جانب غريب في أمرها، فبينما هي تفوص في الجنون، كانت تمر بها فترات من الصفاء الغريب، تعطيها قوة بصيرة ثاقبة. وبناء على أقوال أبيها فقد أصبحت متنبئة تستطيع رؤية المستقبل، وفي مناسبات عدة تنبأت مقدماً بوفاة صديق أو قريب بدقة شديدة، وبأحداث وقعت كما تنبأت بها. كما كانت رؤيتها لما في داخل الأشخاص مدمرة، ففي نوبات غضبها كانت تقول أشياء تحطم ضحاياها لقسوتها الشديدة. ولكنها حقيقية. ولو كانت لوسيا محظوظة في حبها وتزوجت وهي في العشرينيات من عمرها، لبقيت بالتأكيد عاقلة تماماً. أن تكون عادياً وطبيعياً فتلك ميزة كبيرة، ولكنها تقودك لتصبح فرداً عادياً متوسطاً كالأخرين.

الفصل الثالث

الذكر المنتصر

يقول البعض أن "الإنحراف" لا يثبت أي شيء، فهو بطبيعته الخاصة مرض، ولذا فهو استثناء.

إن وجهة النظر هذه، قائمة على فكرة زائفة عن الدافع الجنسي.. على الأقل عند الذكر. فالوظيفة البيولوجية الوحيدة للذكر هي تلقيح الأنثى، وأية ممارسات جنسية بعيداً عن هذه الوظيفة، قد تتحول تحت ظروف معينة إلى أي شيء آخر.. انحراف أو جريمة وتعالوا لنرى:

أصدر الكاتب الفرنسي "هنري باربوس" رواية باسم "الجحيم"، وهي عن رجل في الثلاثين من العمر هبط باريس للبحث عن عمل، كان وحيداً ولا يهتم به أحد، ف شعر بأن الحياة خانقة وكئيبة وبلا معنى. وأنها حلم، وحين يموت يصبح كأنه لم يعيش.

ثم يكشف ثقباً صغيراً في حائط غرفته في الفندق، ومن خلاله استطاع أن يتلصص على الغرفة المجاورة. وفجأة انفتحت أمامه حيوات الآخرين. أول مرة تلصص فيها، رأى الخادمة ترتب الغرفة، لم تُلَفِت نظره من قبل، فقد كان يراها امرأة فظة تفوح منها رائحة كريهة، أما الآن فقد جردّها الليل من القبح، ومسح عنها معالم البؤس والألم. أخرجت خطأً من صدرها، ووقفت قرب النافذة تقرأ، ثم قبلته وخرجت. أصبحت فجأة شخصاً بالنسبة إليه، وبدأ يشعر بأنه أقل وحدة.

منذ ذلك الحين، بدأ يقضي معظم وقته يتلصص من ثقب الحائط، وبدأ يدرك ببطء حقيقة الحياة. بدون ادراك معنى الحياة، نكون كمن يعيش في قفص زجاجي، ويعجز في الوصول إلى الآخرين. بطل الجحيم هرب بالمصادفة من قفصه.

من المؤسف أن الرواية سيئة جداً، فقد كان بالإمكان، بفكرتها هذه، أن تصبح إحدى الروائع الأدبية. لكن ميل المؤلف الشديد نحو التأثرية والعاطفية - كما نرى من حكاية تقبيل الخادمة للرسالة - أفسد الرواية. ولكن برغم رداءتها فإن فيها فقرات مهمة، وتلقي الضوء على بعض جوانب الدافع الجنسي أكثر من أي كتاب آخر قرأته.

حين تجلس امرأة غريبة أمام المدفأة وترفع فستانها، فإنه يكتب "كل جسدي كان يصرخ كأن شخصاً ما قد دمه". وبهذه الكلمات وضع يده على جزء من الإلحاح الجنسي الحاد والمربع للدافع الجنسي الذكري. (يجب أن نذكر أن باربوس كتب روايته سنة ١٩٠٨ حين كانت النساء ترتدين "جونيلات" تصل إلى كاحلهن، ومجرد رؤية "بطة" ساق المرأة كان كفيلاً بإثارة الرجل). ثم خلعت المرأة ثيابها، فيقول "فتحت عيني على آخرهما، نظرتي ثقيلة كاللحم، تشوق إليها، فبرغم القوانين، وبرغم الملابس، فإن نظرة الذكر، دائماً، تنوق إلى المرأة كتعبان يزحف نحو حجرة".

وكان عليه أن يكبح الدافع، حتى لا يكسر الحائط ويتدفع إلى الغرفة الأخرى، ويفترسها.

إنه تعبير دقيق للإلحاح الصرف لحاجة الذكر إلى المرأة، وبعد ذلك يصوّر بشكل أوضح. كان يسير في الشارع المملوء بالنساء، ويشاهد ثوب فتاة تركب الترام، ترفعه الريح، فيعترف "ليست امرأة واحدة التي أريدها، بل كل النساء". ويلتقط عاهرة من الشارع ويذهب معها إلى منزلها، لكنه يدرك أنه لم يكن يسعى لهذا إطلاقاً، أن الأمر جاء كضربة مفاجئة، ووجد نفسه ثانية على الرصيف معذباً ومشوش الفكر. هنا تقع ذروة الرواية، أما بقية أحداثها فقد سارت في هبوط.

يشاهد عاشقين صغيرين يمارسان أول تجربة جنسية لهما، ويراقب امرأة متزوجة "جاءت مع عشيقها ويسمع كثيراً من تفاصيل جبهما بشكل مسرحي، ويشاهد فتاتين تمارسان السحاق ويتعاطف معهما" كل منهما تحب الأخرى، وأما الباقي فلا يهم، أن تكونا منحرفتين أو عاديتين، ملعونتين أو مباركتين، لا يهم، إنهما تحبان بعضهما، وتمتلك كل منهما الأخرى بعمق".

ويدرك من خلال تحديقه في الغرفة المجاورة، أن الحياة أكثر تنوعاً وسحراً مما عرف، وأن الجنس أمر معقد بلا نهاية، ولا يمكن فهمه حتى لو قضينا العمر في دراسته.

"يتشابه كل العشاق في كل مكان. يقعون في الحب بالمصادفة. يتقابلون، ويرتبطون بما يراه أحدهما في وجه الآخر. ويضيء كل منهما بمحاسن الآخر الجارفة، التي هي نوع من الجنون. ويؤكدون حقيقة الوهم، ويحولون، لفترة قصيرة، الزيف إلى حقيقة. أشاهد الحب بكليته، أشاهده عن قرب شديد، يخيخ في وجهي، عقب حرارة الحياة، كالبخور، محققاً هدفه من الجنون والعقم".

لقد أدرك "باربوس" شيئاً مهماً جداً، وجرؤ على القول بأن الجنس، بالنسبة للرجل، ليس موضوعاً لإهتمامه الكبير فقط، بل يمكن أن يكون ناراً ملتهبة تجعل من كل شيء آخر تافهاً بلا قيمة لدرجة العبث.

كما وضع يده على أحد الجوانب الأساسية في الدافع الجنسي، وهي تلك الرغبة في دخول حياة الآخرين، في الخروج من القفص الزوجي الذي يحيطنا من الميلاد حتى الموت.

النقطة الأولى هي المفتاح لأحد أكبر أسرار الدافع الجنسي.

إن حاسة الشم، في معظم الحيوانات، هي العامل الأكثر أهمية في الجذب الجنسي. فالكلبة مثلاً، تفرز مادة تسمى "الودق" من غدد خاصة في منطقة الفرج، لا يمكن للكلاب مقاومتها، وتشمها من على بعد كبير، فتنجذب إليها.

الأنثى في البشر، لديها غدد مشابهة تقع خلف مدخل الفرج، تسمى غدد "بارثولينز"، لا تفرز رائحة تجذب الرجل، ولكن مادة لزجة تساعد في العملية الجنسية.

فالرجل لا يشتهي المرأة من خلال حاسة الشم، بل من خلال حاسة البصر. وفي الواقع أن الإشارة التي تحدثها حاسة البصر، تكون من القوة، بحيث أن الفعل الجنسي نفسه يصعب أن يجاريها، مما يؤدي ألا يحقق الفعل الجنسي درجة الرغبة التي لدى الذكر، خاصة حين يكون الرجل مع المرأة في السرير والضوء مطفأ، مما يجعل حاسة البصر تتوقف عن الإشارة، وقد ينتج عن هذا نوع من الشذوذ لاشباع الرغبات.

في السيرة الذاتية لفرانك هاريس، يصدم القارئ على الفور، للأهمية الكبرى التي يضيفها على حاسة البصر. وكان في كل مرة، يمارس الجنس مع فتاة، يُسرع إلى تعريتها وتفحصها، وحتى بعد

الإنهاء، كان يصر على بقاء الشموع مضاءة، ويعود لتفحص جسد عشيقته. إن الحاجة للإشارة البصرية أقوى عنده من غيره من الرجال.

وقد حاولت الإشارة إلى هذا الموضوع في روايتي "رجل بلا ظل"، فقد توقف بطلها "سورم" عند دكان يبيع الأدوات النسائية، ليشترى بعض الجوارب لرفيقته التي سيقضي الليل معها. كانت هناك عدة مقصورات صغيرة للسيدات، لقياس ما يخرنه من ثياب، وفي إحدى هذه المقصورات، كانت هناك سيدة تخلع فستانها دون أن تجذب الستارة.

ويصف "سورم" مشاعره بأنها أصبحت كعود كبرت ألقيته في برميل من مسحوق البارود، ارتباك مفاجئ ورغبة شديدة مرعبة. وفي طريقه إلى شقة رفيقته تأمل في عبثية هذه الرغبة التي مازالت تبعث الرجفة في جسمه. كانت المرأة في متوسط العمر وأقل جاذبية بكثير من فتاته الصغيرة، لكن هذه النظرة الخاطفة إليها أثارت فيه رد فعل أقوى مما قد تثيره فيه فتاته.

ويرجع السبب في ذلك، إلى أن أعظم قوة مثيرة جنسياً للرجل هي النظر إلى امرأة عارية أو شبه عارية. وهنا نواجه عبثية الحالة التي ذكرها "باربوس" صاحب رواية الجنحيم، حيث أن ذهاب بطله مع عاهرة إلى السرير، فشل في إشباع رغبته، فرغبته كانت أعمق بكثير من أي إشباع ممكن.

النقطة نفسها، تناولها "فيليب دي بروين" في روايته "تهليلة الوثني"، فقد كان بطله يستلقي على الشاطئ يراقب فتاة جميلة جداً في ملابس الاستحمام، تسير على الشاطئ، وفكر أنه من المستحيل أن تشبع هذه الفتاة الرغبة التي تجتاحها إلا إذا قفز عليها ومزق ثياب الاستحمام، أما أن يتعرف عليها، ويقنعها بالذهاب معه إلى السرير، ويمارس الجنس معها، كما فعل بعد ذلك، فكل هذا سيكون نوعاً من الهبوط وليس الذروة.

أحد الأسباب الرئيسية لهذا الشذوذ هو أن العقل نائم، ولأنه نائم، أو متثائب أو وسنان فإنه لا يحتفظ بالإثارة، إنه ينساها بعد دقائق من بدايتها، كما تنسى الأفكار التي تمر برؤوسنا. ونحن على مشارف النوم، إنه لا يملك القوة الكافية لأن يوحّد بين العمل الجنسي نفسه والإستارة الأصلية، إنه كالطفل الذي لا يستطيع حمل شيتين في وقت واحد، فعليه أن يسقط أحدهما ليركز على الآخر.

ولذلك، علينا أن ندرك شيئاً مهماً، بأنه لا يوجد ما يسمى بالجنس العادي أو الطبيعي أو الجنس غير العادي.

كل الجنس قائم في جوهره على غير العادية أو الطبيعية. وهذه العبثية سببها أن العقل نائم أو منوم، والرغبة دائماً أعمق من الإشباع، ولن يوجد الجنس الطبيعي حتى يستيقظ عقل الرجل.

وهذه نتيجة مزعجة ومقلقة، لكن من الأفضل مواجهتها.

ولنأخذ حالة "جيرالد تومبسون" وهو أمريكي أعدم بسبب جريمة جنسية ارتكبها. كان تومبسون، بعكس معظم المحرمين الجنسيين، شاباً أنيقاً، يعمل في وظيفة جيدة، وخطيبته فتاة جميلة. وكان في الليالي التي لا يرى فيها خطيبته، يسير بعربته في الطرقات، حتى يصادف امرأة بمفردها، فيوقف العربية ويسحبها داخلها بالقوة ويغتصبها، ثم يلتقط لها عدة صور. وقد قام بأكثر من خمسين حادثة مشابهة، دون أن تبلغ عنه النسوة، خوفاً من افتضاح صورهن. وكان بإمكانه أن يستمر لسنوات في عمله هذا، لولا أنه بالمصادفة قتل إحدى ضحاياه، وطلب البوليس ممن يملك دليلاً على القاتل أن يتقدم به، مع الوعد بالمحافظة على السرية المطلقة، وحين تقدمت الضحايا للشرطة سهل القبض عليه.

الطريف في هذه الحالة، هو المنطق الجنوني لأعمال "تومبسون"، فقد كان يحاول تطبيق فكرة بطل باربوس في رواية الجحيم: "ليست امرأة واحدة التي أريدها، بل كل النساء". لقد أدرك أن الرغبة تسير أعمق من الاستجابة، وحاول أن يعالج ذلك بطريقة منطقية تماماً، ومن الخطأ أن نطلق عليه غير طبيعي أو شاذ، كان استثناءً منطقياً فقط، وشخصاً غير مكبوت.

ولنأخذ حالة أخرى توضح ما أقصده بشكل أقوى.

قدم شاب يدعى "روبرت اروين" إلى المحاكمة لجريمة قتل ثلاثية. فقد قتل امرأتين ورجلاً، ولم يكن هناك أي إعتداء جنسي.

وقدم طبيبه النفسي "فردريك ورثمان" للمحكمة، تقريراً عن حياته.

لقد استحوذت عليه وهو صغير فكرة ضعف الإرادة البشرية وقصور ذاكرة الإنسان. ولقد قال لطيبه "لقد قرأنا جميعاً شكسبير والإنجيل والقاموس، فكم نتذكر منها؟ القليل جداً، ومع ذلك فكلها هناك في عقولنا، كل سطر، كل مقطع، كل كلمة، سيأتي وقت يمكن للرجل ان يستلقي على السرير في الليل ويفتح كتاب شكسبير الذي في ذهنه ويقرأ ثانية وهو مغلق العينين.

هل سبق لك أن ذهبت لمشاهدة فيلم مرتين؟ ربما جميعاً فعلنا ذلك، لأننا لم نستطع أن نشغل ذلك الجهاز الذي في عقولنا، فالفيلم يوجد هناك طوال الوقت في ذهننا، ومادمت قد رأيته مرة واحدة، فيمكنك البقاء في البيت ومشاهدته ثانية في ذهنك وأنت مغمض العينين، لكن ذلك يتطلب تدريباً شاقاً وإرادة قوية فوق طاقة الفرد العادي، لذا أود أن أحتزل كل كمية ممكنة من الطاقة التي أملكها، جسمية وعقلية".

في مرحلة مبكرة، قرّر "اروين" أن حياته الجنسية تسرق منه طاقة كبيرة، وهكذا فقد حاول أن يقطع قضيه. وأنداك قابل عالم النفس لأول مرة، وعندما استمع إلى تصوراتهِ، قرر أن نزواته غير

ضارة، وقد كرر رأيه هذا في كتابه "مظهر العنف" الذي وصف فيه الحالة. ولم يد أن هناك ماصدمه في تصورات "اروين" فهذا النوع من النزوات هو الذي قدم للعالم كل رجاله وعلمائه العظام.

إن المصير المساوي "لأروين" سببه أنه لم يقابل أحداً يتعاطف مع أهدافه، والتحيز ضده كان كبيراً جداً، فأصابته حالة من الشعور بالإضطهاد الحاد، وارتكب جريمته، التي بسببها قضى بقية حياته في السجن.

إن "اروين" يشبه "تومبسون" لكنه أكثر ذكاءً وأقل وحشية، وقد رأى مشكلة عمي الناس عن رؤيتها، وبحث عن حل، وكان حله خاطئاً، وكان سيكتشف ذلك لو وجد شخصاً ما استطاع أن يناقش معه مشكلته بذكاء.

ماهو الهدف من المقدرة على قراءة شكسبير في الظلام؟ أو مشاهدة فيلم مرة ثانية في ذهنك؟ إن العقل البشري يحتاج إحساساً أعمق بالهدف والرؤية، ومازال ذلك في جوهره صحيحاً.

لكن الشيء ذا الدلالة، أن رجلاً ذكياً مثل عالم النفس "ويرثام" يخطئ في الحكم على هذه الرؤية الصحيحة لأروين ويصفها بالجنون!.

ولنرجع الآن إلى النقطة الثانية التي أثارها "باربوس" في روايته الجحيم، ومحاولة بطله التدخل في حياة الآخرين من خلال ثقب في جدار.

لو فكرنا بإمعان، سنجد أن من أكثر الأمور وضوحاً في عالمنا، أننا جميعاً نختنق بحياتنا، إلا في لحظات نادرة. هناك طرق عديدة للهروب من شعور الإختناق هذا، وأحياناً يزول وحده للحظات، في صباح يوم مشرق أو عند بداية اجازة من العمل، حيث يبدو العالم فجأة أكثر سعادة وأرحب مكاناً.

إحدى وسائل الهروب من الشعور بالإختناق هي اللجوء إلى الخمر، كأس من النبيذ أو الويسكي في أول المساء، ستجعلك تشعر فجأة أن الحياة تستحق أن تُعاش، وهذا دليل على وجود الإحساس بالإختناق. وهو ناتج عن الوعي العالي والتطور لدى الإنسان. فالحيوانات تعيش في عالم شفقي Twilight، فوعياها ليس لديه قوة وعينا الباحثة المنيرة، ولكن هذا يعني أنها أقرب إلى غرائزها وحبها للحياة، من سمع مرة عن حيوان انتحر؟ أو عن بقرة أحست الملل؟

هل الخمر هي الحل للتخلص من هذا الشعور؟ أو المخدرات كما اقترح يوماً عازف الكلارنيت ميزرو، الذي قال إنه حين تناول حبة مخدر، خلصته من الضيق والملل الذي كان يشعر به، وأنه أحس بأن كل ذرة في جسمه بدأت تومض بالبهجة مشعلة مليون لمبة في جسده لا يعرف كيف وجدت هناك؟

كلنا يملك هذه المصاييح في حسده، ولكن التيار مقطوع عنها، لقد سحبه الضوء الكاشف للوعي، ولذلك نحس بمشاعر غامرة من الراحقو السعادة ونحن على مشارف النوم، فالضوء الكشاف الأساسي للوعي لم يعد يسرق كل الكهرباء.

بالطبع هناك اعتراض على المخدرات أو الخمر كحل، فهما يمنحان سعادة على حساب الوعي، وأي فرد يستطيع التأكد من ذلك، فحين تنكر فأنت لا تلاحظ الأشياء إذا لم تنظر إليها مباشرة، وتصبح غرائزك مبللة، وكلامك أقل إحكاماً ودقة، وكلنا يعرف، تقريباً، طرائف للمعمورين، مثل الذي حاول أن يقرأ الكتاب معكوساً، أو ذلك الذي استغرق ثلث الساعة لإدخال للتاح في باب شفته.

وكللك المخدرات، فهي تضعف الوعي، وتقلل الإحساس بالهدف والمقدرة على التعامل مع الواقع.

لكن تذكر الإحساس الذي تشعر به في صباح يوم ربيعي، أو صباح أول يوم في إجازتك، تبدو أحاسيسك آنذاك وكأنها تفتح كلها، وتجذ نفسك تعي بوضوح أماكن وأزمنة أخرى، حتى السماء تبدو لك كرمز للحرية، وذلك دون أن تفقد التركيز أو الوعي كما يحدث في الخمر والمخدرات. كما يمكنك التعامل مع مشكلات الواقع بكفاءة أكثر من المعتاد، ليس بسبب قدرتك على التركيز فقط، ولكن لأن وعيك مملوء بطلاقة معينة من التفاؤل أيضاً، وهو مالا تستطيع الخمر أو المخدرات أن تعطيه إليك.

مهما كان الإحتناق أو الملل الذي نحس به، فيجب ألا نتحمل لحظة واحدة من فقدان الوعي. فنحن ندين بكل ماوصلنا إليه لهذا الضوء المتقدم من الوعي الذي نجده الآن منهاكاً.

لماذا نعلم ان الشعراء دائماً ليسوا على وفاق مع العلوم والرياضيات؟ لأنهم يجدون الحياة أكثر جمالاً ومتعة من أن يضعوها على شئ مضجر كالرياضيات والعلوم.

فكر في الإكتشافات القليلة التي قادت إلى تقدمنا الحالي: يُلقى جاليليو بثقلين من برج بيزا المائل، فيكتشف أن أثقلهما وزناً يسقط على الأرض بالسرعة نفسها للجسم الأقل وزناً. يجلس نيوتن تحت شجرة تفاح ويتساءل لماذا تسقط التفاحة على الأرض بدل أن تطفو كالبالون في الهواء؟.

هل تتخيل شاعراً يفعل شيئاً كهذا؟ إنه مشغول في التطلع إلى المنظر أو كتابة قصيدة.

حضارتنا تدين للملنا وضحرتنا، لو كنا لا نمل بسرعة لأصبحنا ودعاء كالبقرة. وبينما يدفعنا الملل لبناء المدن والطرق والتقدم، إلا أن له أحياناً مساوئ كبيرة. فهو يمنعنا من معرفة خطواتنا التالية. في الأيام التي كانت تُستخدم فيها الخيل لجر عربات الفحم، كانت تُعصب عيونها حتى لا تضطرب في سيرها. عينا الإنسان معصوبتان بالملل، ولقد دفعنا ذلك لعمل أشياء مبهشة، لكن العصابة على العينين تمنعنا من رؤية الطريق أمامنا. ولا نستطيع أن نلقي بهذه العصابة، ولو فعلنا لانغمسنا في تناول الخمر والمخدرات، فنفقد أكثر مما نكسب. الفائدة الوحيدة لها، إذا كانت هناك فائدة، أن تجعلنا نسترخي لفترة لاستجماع قوانا، لكنها تدمر ذلك النظام العقلي الذي يستطيع اعطاءنا ما نريد. إنها

تشجع العقل على السبات. لذا يجب علينا أن نتعلم كيف نجعل الوعي الإنساني أكثر حدة، والجنس يعطينا بعض المفاتيح الهامة لهذه العملية.

الجنس حيلة أو وسيلة سحرية، وعلينا أن نجد سرها.

العشاق الكبار:

"برغم القوانين، وبرغم الملابس، فإن عيون الذكر تتوق إلى الأنثى دائماً، وتبحث عنها كالثعبان يسعى إلى جحره". صورة جميلة، يصور فيها "باربوس" حال كل الرجال. فكل الرجال الأصحاء، يودّون لو عذروا النساء كما يُعذر الثعبان فريسته. مَنْ منا لا يحسد السلطان الذي يلتفت إلى وزيره، حين يرى فتاة جميلة، ويقول له: "احضرها إلى قصري الليلة".

لكن هل هذا فعلاً هو ما يجعل حياة الإنسان الجنسية كاملة؟ بالطبع لا، ولعدة أسباب، منها أن السلطان سيضجر من حرمة كما يضر أمين المكتبة من كتبها. ما يريد السلطان أن يجربه مرة ومرة هي تلك الأحاسيس التي تتاب شاباً يمارس الحب لأول مرة، ويعرف أن حبيبته على استعداد لأن تمنحه نفسها كلية.

إن الحریم المملوء بالنساء، لن يكون مثيراً بعد عدة أسابيع، أكثر من حظيرة مملوءة بالأبقار.

مايزغ بالتدريج في ذهن أي شخص يملك العقل ليتعمق هذه المشكلة هو أن الحاجة لكل النساء هي خدعة وحيلة. ولنتحاول أن نرى كيف تسير اللعبة لنبدأ بـ "كازانوف" الذي يعتبر اسمه علماً على الفحولة الجنسية.

حاك كازانوف، الذي كان يجب أن يضي على اسمه هالات من الألقاب الكبيرة، كان ابناً لممثل مستهتر، متزوج من ابنة "حزجي"، وُلد في البندقية سنة ١٧٢٥. وكانت في تلك الأيام أعظم مدن العالم سحراً وتهتكاً. مات والده بعد أن أنجب ستة أطفال كان "كازانوف" أكبرهم، وكانت الأم تعمل في المسرح أيضاً، وهكذا نشأ "كازانوف" عملياً دون سيطرة أبوية، في رعاية جدته.

كان فبيح الخلقة، قوي البنيان، غجري البشرة. عيناه خرزيتان كالطائر، وأنفه رفيع وطويل، وفمه شهواني، وكان طويلاً جداً، أكثر من مترين في عصر كان متوسط طول الفرد فيه ١٦٠ سنتيمتراً، وكان شديد الذكاء، يسعد الناس بتعليمه. لكن المهنة الوحيدة التي كانت متوفرة لإنسان لا يملك النقود آنذاك، هي في الكنيسة، وهكذا قرر كازانوف أن يصبح راهباً.

كان في حالة حب دائم منذ كان في العاشرة من عمره، حب برئ، فقد كان وغداً محبوباً ومرحاً. حين كان في السادسة عشر من عمره، وقع في حب فتاة تدعى "أنجيلا"، لكنها لم تجده جذاباً. ووافقت صديقتان لها - نانيت ومارثون - أن تساعداه للفوز بها. كان من عادته أن يتعشى

عندهما، وبعد العشاء يغادر أمام الجميع ويصفق الباب وراءه، لكنه كان يتسلل من سلم خلفي إلى غرفة نوم الفتاتين حيث تلحق به الفتاتان بعد ذلك وبصحبتهما انجيلا، ويتحدثون همساً مستمتعين بارتكاب المنوع. وفشلت فتاته يوماً في القدوم، وانتظرها طويلاً، ولم يستطع مغادرة المنزل حتى الصباح، حين فتحت عمة الشقيقتين الباب وذهبت إلى الكنيسة. وهكذا نام بين الفتاتين على السرير، وعند الصباح كان الثلاثة قد فقدوا عذريتهن.

هل هذه القصة التي رواها كازانوفاً حقيقية؟ لن نعرف أبداً، لكنها تتفق مع شخصيته تماماً. لقد بدأ حياته الجنسية، لا بالنوم مع فتاة واحدة، بل مع فتاتين.

أصبح كازانوفاً الآن راهباً، وأعجب به رجل من الأغنياء، فدعاه ليقم في منزله الكبير، وبدأ أن الحياة فتحت ذراعها له، فقد كان الرجل قوي النفوذ. لكن حدث أن وقع هذا الرجل العجوز في غرام فتاة تقيم في المنزل أيضاً، اسمها تيريزا، وذات يوم، حين ظن الاثنان أن العجوز نائم، طرأ على ذهن كازانوفاً وتيريزا أن يفحصا الاختلاف بين الولد والبنت (كما روى كازانوفاً بنفسه) ولكن ضربة قاسية من عصا وضعت نهاية لتساؤلهما العلمي، وُطرد كازانوفاً من البيت.

لن ألخص بالطبع مذكرات كازانوفاً، فهي تقع في أربعة آلاف صفحة، ويكفي أن نقول أنه أصبح، منذ ذلك الحين، نصاباً ووغداً كاملاً، بدأ بالنصب على عائلته، فباع اثاث البيت الذي تركه والده، وتدخل أحد المحامين وسجنه.

هرب كازانوفاً من السجن، وبحث عن المحامي حتى وجدته، فضربه وكسر له ثلاثة أسنان بالإضافة إلى أنفه وألقى به في قناة، ثم سارع بالعودة إلى السجن. وهكذا حين جاءت الشرطة لتتأكد من هروبه بناء على شكوى المحامي، كانت له حجة قوية ضد خصمه.

وحين أفرج عنه، لم تسمح له حساسيته أن يبقى في البندقية، فغادرها.

قليل من الرجال، الذين اغتنوا وأفلسوا عدة مرات في حياتهم مثل كازانوفاً، أصبح غنياً عدة مرات، وشحاذاً مرات عديدة. خدعه أحد الرهبان واستولى على كل ثروته، وراهب آخر على الدرجة نفسها من الوضاعة، علمه فنون السرقة والقتل حتى يشق طريقه دون أن يجوع، لكن للإنصاف فإن كازانوفاً لم يقتل قط.

من حسن حظي، أنه كان ذكياً جداً وله حضور كبير، وهما العدة المثالية للنصاب الجيد. فبدأ عمله بممارسة بعض الألعاب السحرية ورؤية البخت، واستطاع أن يكون مشهوراً. أحياناً يتسم له لحظ بدرجة كبيرة، فيشتري ملابس جميلة، وعربة خاصة تحمله، وفي أوقات أخرى كان يهرب وقد وضعت الشرطة ثمناً لرأسه. ولكن سواء كان الرجل المدلل للمجتمع، أو المطارد من البوليس، فإن

الحب الأكبر في حياته كان النساء. وكان يفضل العذارى البريئات، ومن الصعب القول أنه كان نصاباً كبيراً في الحب كما هو في أشياء أخرى.

والصفحات التي يصف فيها طريقة هروبه من السجن في البندقية، من أجمل وأكبر عمليات الهروب في الأدب.

وأخيراً، بعد حياة طويلة من إغواء الفتيات، والتسكع والنصب في منتصف الليالي، استقر به المقام كأمين مكتبة في قلعة رجل من النبلاء.

وبرغم تمزقه وسوء مزاجه وكثرة شكواه من أن الخدم لا يعاملونه باحترام، فإنه كان يكتب وكتب في مذكراته هائلة الحجم التي تعطينا صورة شبه كاملة عن السلوك البشري في القرن الثامن عشر. إن الأربعة آلاف صفحة التي بين أيدينا من مذكراته هي جزء ضئيل من المخطوطة التي ضاع أكثرها وهو يغطي خمسة وعشرين سنة من حياته.

أن أول ما يلاحظه قارئ المذكرات، أن كازانوفا يعتبر نفسه من طليعة كبار المثقفين بالدرجة الأولى. وبالرغم من أنه كان أميناً تماماً في وصف عمليات النصب التي قام بها بالتفصيل، فهو لم يفكر في نفسه قط باعتباره نصاباً. وهذا هو بالتأكيد مفتاح شخصيته.

ومن يقرأ مذكراته، متوقفاً أن يرى فيها قصة جنسية مثل "فاني هل"، فسيصاب بخيبة أمل. فالجنس يحتل جزءاً صغيراً جداً في هذه الصفحات، حتى الوصف في هذا الجزء لا يتطرق قط إلى التفاصيل العملية.

كذلك فإن الفصل الذي كتبه عن زيارته للكاتب الفرنسي فولتير، يلقي ضوءاً آخر على شخصيته. كان فولتير في ذلك الوقت، كاتباً مشهوراً في كل أوروبا (في هذه الأيام يُقرأ أقل من كازانوفا، وهي لمسة كانت ستسعد النصاب الكبير لو كان يعلمها)، وقد عانى اضطراباً كبيراً ليوضح للقارئ أنه مسافر لفولتير، ويعيد سرد حواراته معه كلمة كلمة، خاصة الأمور التي اختلفا عليها، ويصر على أنه كان على حق فيها. وهذا يعطينا مفتاحاً آخر لشخصيته.

فهو لم يكن مهتماً بالجنس بالدرجة الأولى، وتذكر ونحن نقرأ المذكرات أن هذا العاشق الكبير كان على استعداد أن يضحي بروحه، كي يُعتبر كاتباً كبيراً. وقد ألف مجموعة من القصائد المتنوعة، وبضعة مسرحيات وأعمال أخرى، يذكرها بطريقة توحى للقارئ بأنها من الروائع. كان بإمكانه أن يصبح كاتباً مهماً لو امتلك فضيلة ضبط النفس، فقد كان شديد الذكاء، لكن لسوء الحظ، كان متكبراً وأنانياً وضعيفاً أمام شهواته. والشئ الوحيد الذي تاق إليه أكثر من أي شئ آخر، هو أن يولف كتاباً واحداً يعرفه به كل قارئ، أن له بالطبع المذكرات، لكنها نشرت بعد وفاته بفترة طويلة. وليس معنى ذلك أنه التحق بالجنس لأنه لم يستطع تحقيق نفسه ككاتب، فالجنس مبهج، لكن لا يوجد

رجل يطارد النساء لينام معهن في الفراش لأنه وجد أن ممارسة الجنس لأول مرة كانت ممتعة، مثل من يأكل قطعة شيكولاته ويحبها للذينة، فيحاول أن يأكل طناً منها.

كان كازانوفيا يحب أن يراه الناس في صورة معينة: ملابس فخمة مصنوعة من نسيج موشى، منازل جميلة، عربات أنيقة وخيل، ضيف تستقبله بيوت الأغنياء بترحاب، مؤلف أغاني جميلة، ومترجم جيد، ورجل واسع الثقافة. ببساطة أراد أن يكون رجلاً عظيماً.

ينقسم الجنس البشري تقريباً إلى نوعين من البشر: ٩٥٪ منهم يعرفون أنهم ليسوا عظماء ولن يكونوا، ويقبلون موقعهم من الحياة، ويستمررون في عملهم اليومي دون أسئلة كثيرة. وبقية الخمسة بالمائة، لديهم إحساس محدد بأنهم ينبغي أن يكونوا عظماء، وقد لا يعرفون كيف يحققون ذلك، إلا أنهم ينظرون حولهم، ولا يقتنعون ببساطة أن يكونوا مثل الآخرين.

قد تبدو النسبة غير كبيرة، لكنها بالفعل كبيرة، واحد من كل عشرين فرداً، وليس معنى ذلك أنهم كلهم شكسبير أو نابليون، لكن هناك في داخل هؤلاء الناس دافع قوي للسيطرة، والرغبة في العلو في المجتمع، لكن نسبة ضئيلة منهم هي التي تحقق شهرة كبيرة، ونسبة كبيرة منهم يصبحون نقاداً وأساتذة جامعات، يقضون وقتهم يتحدثون الرجال العظام الذين ماتوا، بينما يهاجمون أية بوادر عظمة عند الأحياء.

إن ٩٥٪ من البشر راضون بالوضع الذي هم عليه بشكل أو بآخر، و٥٪ يشعرون بإحساس غامض بأن عليهم أن يكافحوا ليرتقوا بوضعهم بأي ثمن، دافع تطوري، لكن كثيراً منهم لن يحقق شيئاً ذا قيمة. قد يصبحون أكثر مرارة، موظفون مدنيون متسلطون، يستمتعون بالاستئساد أو التحكم فيمن يأتون لقضاء حاجاتهم، في الواقع، يصبحون "بلطحية" صغاراً يستحقون الرثاء. ويجب أن تكون صبوراً مع أمثالهم، فهم غير محظوظين، لديهم دافع يعذبهم على الدوام كقطعة زجاج في الحذاء، ومع ذلك تنقصهم الثقة أو القدرة لفعل شيء تجاه ذلك. إنهم أتعس البشر.

ملايين من الشباب، يجربون استخدام هذا الدافع - دافع التطور - ليخرجوا من الروتين الميت الذي يقدمه العالم إليهم، ولا يستطيعون فهم كيفية تقبل آباؤهم للحياة بهذه السهولة. وهذا هو سبب شعبية "جيمس دين" وسط الشباب، وهو الذي يجعل التواصل سريعاً بين فرق الغناء المختلفة والشباب، فهي تحمل وعداً لهم بأن الحياة ليست كئيبة كما يجدها معظم الكبار. ولسوء الحظ هي معركة خاسرة، فالرتابة والغباء هما العدوان المبيتان للجميع، يخنقنا حتى تنتهي بأن تنضم إليهما تلافياً للإرهاك الكلي.

لكني لا أريد أن أكون مثيراً للإحباط، فأنا شخصياً لا أشعر به، ولو استطاع الشباب استخدام عقله، فإن الفوز سيكون سهلاً، حتى لا يقع تحت ثقل رتابة الحياة.

إن كازانوف لا ينتمي فقط إلى نسبة الخمسة بالمائة التي تريد أن تكون عظيمة، بل ينتمي إلى الواحد بالمائة منها، المصمم أن يصل إلى القمة مهما كانت التضحيات. هناك شيء واحد كان ينقصه، هو الإيمان الحقيقي بنفسه، فالرجل الذي يملك ثقة حقيقية بالنفس، يندفع إلى الأمام، ويتقدم جانباً رأسه للعاصفة، لاعتناً المعارضين، مصمماً على الفوز، لكن رجلاً مثل كازانوف، يرغب في عائد سريع، ولديه ضعف جوهري تجاه رغباته، لا يملك هذا النوع من القوة.

إن من أفضل الطرق في العالم لرفع الثقة في النفس.. هو الجنس، خاصة إذا كنت جذاباً. إن قوة الحياة تدعّمه بشدة.

قد تكون في قبضة قرف عميق، وقد تشعر أن حياتك عبارة عن فشل متواصل، وكل سعادة هي خدعة، ولكن إذا مرت بك فتاة جميلة، جذابة ومغرية، فستكون كصوت البوق لحصان حرب عجوز، وذلك سبب تقليد الرجال لعواء الذئاب أحياناً، حين يرون فتاة جميلة، أو يدقون على صدورهم كالقروود، إنهم يعبرون عن رد فعل بدائي تماماً، أعمق من الفكر أو التقاليد الاجتماعية. الجنس يجعلك تدرك أن الحياة أكثر أهمية مما كنت تعتقد، ويشعرك بالحنج أنك كنت على وشك الإستسلام. فجأة تبدو الحياة لك رائعة، ويختفي التشاؤم، وتشعر أن خطأك الأساسي هو حذرك وعدم ثقتك في الحياة، وأنه ببعض النشاط والجرأة والتفاؤل ستتخطى كل المشاكل.

كل هذا يستطيع الجنس أن يفعله، ولذا فإنه كان النصير الأكبر لرجل مثل كازانوف، لديه الكثير من المهوبة والذكاء، ولكنه لم يستطع الوصول إلى الدرجة التي يريد بها بسبب ضعف إرادته الشديد. ولو كان مكانه رجل أضعف منه وأكثر غباء لوقع ضحية الخمر أو المخدرات. ولهذا أصبح كازانوف عاشقاً عظيماً، وفي كل مرة تستسلم له امرأة، يكون كتابليون حين ينتصر في معركة.

لقد قال "ازرا باوند" ذات مرة "إن الشعراء يشربون من الحياة، كما يشرب الرجال الضعفاء النبيذ".

وهذه هي الصورة التي كان كازانوف يحب أن يظهر عليها، كازانوف الزوبعة التي تدور حول العالم، تكنس النساء كأوراق الشجر، تحملهن لحظات في طيرانها المرعب، ثم تسقطهن.

يذكر، بفخر، في مذكراته، كيف أنه قابل امرأة صغيرة جميلة متزوجة في دكان "ترزي"، ووجد لهشته أنها مازالت عذراء، فزوجها، الذي كان يكبرها كثيراً كان مريضاً. وبسرعة اكتسب ثقة الزوج وأغوى الزوجة. وتدرك أن نصف متعته كانت في احساسه بخطف الثمرة من تحت أنف زوجها، وأثبت لنفسه ثانية أنه الأفضل.

لكننا نكتشف أنه أيضاً كان نصاباً في الحب كما هو في الحياة، قاومته إحدى الفتيات في مناسبة ما، واتخذت لها عشيقاً آخر، وكانت صدمة كبيرة له، وثار غضبه، لكنه لعب لعبة الإنتظار، وتظاهر، في الوقت نفسه بأنه صديقها، واثقاً أن فرصته ستحين. واكتشفت الفتاة أنها حامل، وجاءت الفرصة

للتعبان، فأكد لها أن لديه مرهماً يخلصها من هذا الحمل دون ألم، لكن لابد من وضعه في مدخل الرحم، وسألته بسذاجة: كيف ستضع "المرهم" هناك؟ فقال لاشئ أسهل من ذلك، فهو يمتلك آلة صُنعت لذلك الغرض، إذا تُمن المرهم على طرفها. وصدقته الفتاة الساذجة ونال هدفه أخيراً، واضطرت الفتاة بالطبع أن تضع طفلها في أحد الأديرة.

قصة طريفة، لكنها نموذجية تماماً في التعبير عن هذا النصاب الوائق بنفسه. كان كازانوفاً وغداً وضيقاً أمام شهواته، وإذا لم تُعطه الحياة ما يريد، فإنه يعمل على سرقة، والغريب أنه لم يعتبر نفسه وغداً لأنه لم يؤذ أحداً. وكل هذا الحديث عن كونه عاشقاً كبيراً مجرد هراء، فقد كان ماهراً في سرقة الحلوى من الأطفال، وكان غيباً بما فيه الكفاية - برغم ذكائه - ليقضي حياته بهذا الشكل.

وقبل استخلاص عدة نتائج، لنلق نظرة على حياة بعض هؤلاء العشاق الكبار، وسنجد أن النتيجة في النهاية هي نفسها.

فرانك هاريس مثلاً، يشبه كازانوفاً بشكل غريب، برغم أن سيرته الذاتية "حياتي وغرامياتي" أكثر بقليل من ألف صفحة، مجرد أن تبدأ بقراءتها يصدمك التشابه مع كازانوفاً. فهي أبعد ماتكون عن البذاءة، برغم أنها لم تبع بشكل علني في بريطانيا حتى سنة ١٩٦٤. "هاريس" الذي ولد بعد كازانوفاً بأكثر من قرن، كانت عنده الرغبة المحزنة نفسها في أن يكن رجلاً عظيماً وكاتباً مهماً.

كان فرانك هاريس ابناً لضابط بحري أيرلندي، هرب إلى أمريكا وهو في سن السادسة عشر، اشتغل مديراً لفندق، ثم راعياً للبقرة، ثم محامياً، ثم عاد إلى إنجلترا وقرر أن يصدر جريدة للفضائح في وقت كانت فيه كل الصحف محترمة جداً. وبذلك كان أحد مؤسسي الصحافة الشعبية الرخيصة التي تعطي الجمهور ما يريد. واعتقد هاريس، مثل كازانوفاً، أن لا موانع ولا حواجز تقف أمام الإنسان في معركته مع العالم، وهكذا كذب وابتز ونصب بقدر ما حرو على ذلك. وكان بعيداً عن الأمانة التامة في سرد قصة حياته، ولم يعترف بعمليات النصب التي قام بها.

ولو قرأت مذكراته، أو الترجمة التي كتبها عن صديقه الحميم أوسكار وايلد، أو كتابه عن شكسبير، ستجد أن الزبدة لا تسيح في فمه (القول لا تبتل في فمه).

هناك مواقف يتحدث فيها كشاعر كبير عن الحاجة إلى نوع من المثالية الراقية، ومن الواضح أنه يصدق كل كلمة يقولها.

وحين تقرأ مذكراته، تتساءل عن تلك المأساة الكبيرة التي منعت هذا الرجل من أن يكون كاتباً كبيراً، وكان سيسعد بهذا السؤال، ولكن إذا قرأت أي كتاب عنه، فستدرك بسرعة لماذا لم يكن كاتباً كبيراً. فهو مثل كازانوفاً كان متكبراً أنانياً ضعيف الإرادة.

وكما قلت فإن مذكراته ليست من الأدب الجنسي المكشوف، فهي مغلفة بمحو متقد من المثالية والأدب العظيم مع بعض السذاجة. فهو يقول عند ذكر بعض الإغراءات التي قام بها: "قد تُصَدِّم قارئاتي الصغيرات حين تعلمن أن..." فتحس أنه يرى نفسه روحاً شاعرية راقية وأن معظم الفتيات الصغيرات يقرأنه بانتباه رصين.

ولكن برغم محاولاته لإخفاء ضعفه الأساسي وعدم أمانته، إلا أننا نلاحظ ذلك خلال الكتاب كله. فلقد اهتم بالجنس في سن مبكرة، في الرابعة عشر من العمر. وكان من عاداته أن يمد يده فحاة ليلمس ساق أي فتاة تقترب منه، وكان من طبيعته السيئة "التنش" فهو يعتقد أنه لا يمكنه الحصول على شيء إلا إذا اختطفه على غير توقع من الآخرين. أقام على ظهر السفينة، وهو في طريقه إلى أمريكا، علاقة حب مع ابنة أحد الضباط، وسمحت ليدبه أن تعبثاً بجسدها بمجرد أن وعداها بالزواج. وانتهر الفرصة في نيويورك ليقضي ساعات معها في غرفة نومها، ولكنها لم تكن بعد على استعداد لمنحه جسدها، فhez كتفيه وتركها وسافر إلى شيكاغو دون أن يقول لها وداعاً، وهو أبسط ما يمكن أن يفعله. رفضت أن تمارس معه الجنس، إذن فهي تستحق أن تُنبذ بلا ندم.

حديثه عن اغواءاته أكثر تفصيلاً بقليل من كازانوف. ومن الواضح أنه يجد لذة معينة في إعادة سرد التفاصيل الدقيقة، ولكن تشعر طوال الوقت بأنه يمارس الحب بروح أنانية تماماً، بالضبط كعلاقته مع الفتاة على ظهر السفينة. وهو في هذا أسوأ من كازانوف، فهو ليس لصاً للحب فقط، بل قاطع طريق، يحل له اعتراض كل المسافرين، وخطف عذريتهن وهن ساهيات.

يزعم في الجزء الثاني من مذكراته، أنه أحب فتاة قابلها في لندن وأراد أن يتزوجها، لكنه أصبح صحفياً مشهوراً ونسيها تماماً. وحين تقابلا ثانية، أغروها بسرعة دن ذكر حب أو زواج، برغم زعمه بأنها واحدة من أهم النساء في حياته، ولم يشرح لنا أبداً لماذا اقتربا، وعلى القارئ أن يقرأ ما بين السطور، وهذا ليس أمراً صعباً، فبالنسبة إليه، "فهاريس" هو أكثر الأشخاص أهمية في العالم، وأية علاقة مع امرأة محكوم عليها أن تكون علاقة من جانب واحد فقط، وعلى المرأة أن تكون قديسة حتى لا ترى انشغال "هاريس" الكلي بذاته.

يبدو حديثي هذا وكأنني أكره هاريس بدرجة أكبر من الواقع، فقد كان نذلاً عحيياً، ومذكراته جيدة وكلاسيكية بطريقتها الخاصة، ولا يمكن أن نشك لحظة بأن الرجل كان عاشقاً عظيماً، فقط لأنه أراد أن يكون إنساناً عظيماً، لكنه كان ضعيفاً ومتكبراً.

كل الشواهد توضح أن العشاق الكبار كانوا فاشلين، ينقصهم احترام الذات، وقد كان باستطاعتهم أن يكسبوا هذا الاحترام بفعل شيء ما يجعلهم عظماء حقاً، ولكن لم تكن لديهم القوة الكامنة الكافية لذلك، وهكذا أصبح الجنس طريقاً جيداً لدعم روحهم المعنوية، أفضل بكثير من زحاجة ويسكي.

هناك مثلاً، حالة هنري ميللر الغريبة، وقد مُنعت كتبه فترةً من الزمن في بريطانيا وأمريكا، وهي نوع من السيرة الذاتية، يتعلق معظمها بانتصاراته الجنسية. وهو ككاتب أفضل بكثير، بالطبع، من كازانوف وهاريس، فهو يمتلك ذهنًا أصيلاً وموهبة جيدة، كما أنه يحب الفكر من أجل الفكر، وبعض أعماله غير الجنسية مثل "الكتب في حياتي" تظهره في أحسن حالاته، ولكن إذا قرأت ثلاثيته "الصلب الوردي" التي يعتبرها رائعته ووصيته العظيمة، فستضح لك أن هذا الرجل يعاني من نقص كبير في ثقته بنفسه واحترامه لها.

ربما يرجع ذلك، لأنه ظل أفضل قليلاً من صعلوك حتى أصبح فوق الأربعين، حين كتب أول كتبه الناجحة "مدار السرطان"، لكنك تصاب بالإحباط من حياة هذا الكازانوف الجديد، الذي يعيش دائماً في مساكن قذرة، ويشرب القهوة مع شعراء يرتدون ثياباً رثة، ويقترض النقود دائماً.

هناك من يعتقد أن "ميللر" هو أحد أنبياء القرن العشرين، ولكنني شخصياً أرى أن مأساته أكثر أصالة من كازانوف وهاريس، لقد اقترب بشدة من أن يكون كاتباً كبيراً، لكنه لم يستطع أن يتخلص من فشله المرعب في أن يثق بنفسه.

ونحن نتحدث عن العشاق العظام، لا بد من كلمة عن "لورد بايرون" الذي يبدو على النقيض من كل ماقلته سابقاً، فمن النظرة الأولى، يبدو "بايرون" عاشقاً كبيراً وشاعراً عظيماً وعقلية قوية.

ولا يوجد شك في حماسه لممارسة الجنس، يقول صديقه "بيلودوري" "بمجرد أن يصل إلى غرفته في فندق ما، حتى ينطلق كالصاعقة على الخادمة".

ومنذ أيام دراستنا، ونحن نعتز بهذه الصورة عن العبقرى الكيب بايرون، رجل يتجول في أوروبا، ويطلق، بين حين وآخر، قصيدة جديدة، ثم ينقض كالصاعقة على أقرب فتاة جميلة.

لكن بايرون، الرجل الكامل، انحنى تحت ثقل خطيئة كبيرة لم يجرؤ على البوح بها. ولسوء الحظ فإن الباحثين في القرن العشرين استطاعوا كشف بعض الأسرار الخفية في حياة بايرون.

الخطيئة الكبيرة التي لم يجرؤ على الاعتراف بها، هي خطيئة أوسكار وايلد نفسه - الشذوذ الجنسي.

كان بايرون ابن أمه، وقد أصبح شاذاً وهو في المدرسة العامة. وحين تزوج من فتاة حذابة، سارت حياته سيراً جميلاً، لكنه أصر أن يمارس معها الجنس بالطريقة التي تعلمها بالمدرسة، فلم تمنع، لكن عند أول شجار معه، اعترفت لوالديها بممارسته الشاذة، فأصابهما الذعر وأصرّا على الطلاق - راجع كتاب البروفيسور "ويلسون نايت" زواج لورد بايرون، الذي يثبت فيه أن إنهيار زواج بايرون كان بسبب أنه أراد أن يأتي زوجه من دبرها.

وغادر بايرون إنجلترا، خوفاً من تنائر الشائعات حول شذوذه، ويصيب الرعب كل الفتيات الصغيرات الرومانسيات اللواتي يشترين شعره ويعدونه كبطل.

كان ثنائي الجنس، تناسبه النساء كما يناسبه الغلمان، لكنه لا يثق في المرأة ولا يحبها كثيراً، وكل صداقاته الحقيقية وعلاقاته العاطفية مع الرجال أو الشباب، وقصته الوحيدة الحقيقية كانت مع امرأة على شاكلته، هي السيدة كارولين لامب، امرأة جميلة لكن عصابية تماماً، كانت تطارده بجنون وتلقيه على السرير حتى كان يشعر بأنه يُغتصب.

منذ ذلك الحين، كان العاشق الكبير يفضل الخاديات أونساء من طبقة إجتماعية أدنى، فهن لا يثرن أعصابه. وتحت هذا الغلاف الخارجي المتفطرس فقد كان بايرون ولداً صغيراً يتوق إلى أحد يحبه، يتأذى بسهولة، وفاسد تماماً. وهذا العاشق الكبير يبدو عن قرب رجلاً آخر تنقصه الثقة بالنفس لا يستمتع بالجنس مع النساء. ولقد مات قبل أن ينضج.

ولدينا حالة مشابهة من عقدة العاشق الكبير، في القرن العشرين، وهي حالة الكاتب هـ.ج. ويلز. ولقد اقترب أن يكون كاتباً عظيماً، فموهبته أفضل من كل العشاق الذين عرفناهم، ولكن إذا قارناه بصديقه ومنافسه الأدبي "برناردشو"، سنرى أن شو هو الرجل العظيم بحق.

كان "ويلز" رجلاً قصيراً، له صوت "مسرّع" ولكنه خاصة لم تفارقه أبداً. سنوات حياته الأولى كانت بائسة ومحبطة، وحين تزوج ابنة عمه، وهي فتاة لا تشترك معه إلا بالقليل، كانت أول امرأة في حياته. لقد اقترب من الموت بسبب السل والإهمال، لكن لحسن حظه بدأ يشق طريقه ككاتب، وبعد زواجه بفترة قصيرة خان زوجته مع فتاة أخرى تعيش في البيت نفسه، ولقد سجل أحاسيسه بالنشوة من هذه الحادثة. ثم وقع في حب إحدى تلميذاته، وكان مدرساً للعلوم في ذلك الوقت، وهي فتاة ذكية هادئة، وموهلة أفضل من زوجته لفهمه. في سن الثامنة والعشرين نشر روايته "آلة الزمن"، ووصلته الشهرة بخبطة واحدة، ولم ينظر إلى الوراء أبداً. وفي سن الأربعين كان أحد الملامح القومية الإنجليزية، وكسب ثروة كبيرة.

عُرف عنه في لندن، أنه أكبر دون جوان مثابر، ربما لأنه قصير وبدين (في تلك الأيام) وصوته "مسرّع"، فأراد أن يثبت لنفسه ما اكتشفه كازانوفا قبله، بأن الشكل الجميل ليس مهماً بالنسبة للنساء. كانت زوجته الثانية مخلوقاً لطيفاً، تحطم قلبها في البداية، من علاقاته المتواصلة مع النساء، ولكن كان عليه أن يثبت لنفسه شيئاً ما، وبالتالي لا شيء يهم غير ذلك. وكان عليه أن يواصل بالتأكيد لنفسه بدلائل مادية على شهرته ومجده. فأى كاتب جاد، على سبيل المثال، يتعرض لأن يعرف عدداً من الناس أكبر مما يريد معرفته، وإذا كان مشهوراً، فيمكنه أن يقضي حياته كلها في الذهاب إلى الحفلات ومقابلة أمثاله من المشهورين في عالم السياسة والسينما والأدب، ولو كان لديه

عقل فسيتعجب من ذلك بسرعة، ويدرك أن الناس، حتى المحترمين والمشهورين منهم، يمكن أن يكونوا مضطربة للوقت تماماً، وبالتالي يحاول الهرب من كل ذلك، وينكب على عمله.

"ويلز" لم يستطع أن يتدبر ذلك، فالدليل المادي للنجاح عنده، هو أن يحيط نفسه بالمشاهير والنساء.

شجاراته العامة، أصبحت دليلاً على افتقاده للثقة في نفسه، فهو يستشيط غضباً بسرعة، وينفجر في شتائم هستيرية لمن يعارضه، وفي أواخر حياته أصبح حاد الطبع وحساساً جداً.

كذلك بدأ برناردشو حياته الجنسية كزير نساء، برغم - وذلك غريب جداً - أنه ظل بكرًا لم يمارس الجنس حتى أواخر العشرينيات من عمره حين أغوته إحدى تلميذات أمه. وحين التحق بجمعية الإحياء الإشتراكي سنة ١٨٩٠، ونشر أول كتبه، وكتب نقداً درامياً لجريدة فرانك هاريس، وجد أن من السهل إقامة علاقات حب مع النساء، فكانت له سلسلة من المغامرات ذكر بعضها بالتفصيل "هيسكيت بيرسون" في كتابه عن حياة شو.

ولكن بمجرد أن بدأت شهرته في أوائل سنة ١٩٠٠، تزوج من وريثة إيرلندية واستقر سعيداً في حياته. وأصبح في السنوات العشر التالية أكبر كاتب مسرحي في أوروبا، كان يقيم أحياناً علاقة رومانسية مع إحدى السيدات الشهيرات، مثل مسز بات كامبل، لكن الأمر لا ينتهي قط في السرير، فلم يكن لديه الدافع للوصول إلى تلك النتيجة. أطلق عليه أعداؤه أنه سمكة باردة، وأنه فرانك هاريس بالعجز الجنسي، لكن الأمر لم يكن كذلك، فقد أثبت لنفسه أنه يستطيع الحصول على أي عدد من النساء الجميلات كأي شخص آخر، ولذلك كان يتجه إلى فعل شيء آخر. ولقد قيل أن زواجه لم يكتمل أبداً؛ لأن زوجته تكره الجنس، وهذا ليس مؤكداً، ولكن إذا كان حقيقياً، فمن المدهش أنه لم يستغل شهرته لإتخاذ عشيقات. لقد كان لديه بالفعل، احتشام إيرلندي ما حول الفعل الجنسي والحديث عنه - وهو هنا عكس ويلز تماماً - ربما لم يكن مخلصاً لزوجه طوال حياته - وهناك مثلاً حكاية غريبة تقول أنه تبع مسز كامبل إلى الشاطئ يوماً وصدته، لكن هذا خارج الموضوع - لم يكن برنارد شو دون جواناً؛ لأنه وجد أن في الحياة أموراً كثيرة مهمة غير الجنس.

* * *

قد يجد الشباب الصغير هذا الموضوع صعباً على الفهم، وقد يفضلون ويلز وهاريس على برناردشو، ولكنني أقول من تجربتي، أنني أفضل الإنحياز إلى شو، وأتطلع إلى اليوم السعيد - الذي تنبأ به - حين ينصرف كبار السن عن الجنس تماماً. ولا يبدو هذا أملاً مستحيلاً كما كان يبدو منذ عشرين عاماً مثلاً.

الهدف من كل هذا الحديث عن العشاق الكبار، هو القول بأن غريزة المرأة تتركز حول الجنس أكثر من الرجل، فالمرأة هي التي تحمل بالأطفال، ومشكلتها هي اختيار الرجل الذي يمنحها أجهل

الأطفال وأكثرهم صحة. وقد تفضل الوجد أو المتشرد على الرجل الذي يقدم لها الأمان، لأن غريزتها تخبرها بأنه الرجل المناسب.

ولكن إذا كان لدى الرجل إحساس بكيانها، فإن غريزته تتركز على العظمة، وأنداك تحركه إرادة قوة غامضة يصعب فهمها تماماً. ولأن المرأة قد تعطيه لحظات رؤية مدهشة، خاصة إذا كان صغيراً وخجولاً ولا يملك الكثير من الغرور، فإن فتاة جذابة تقع في غرامه، وعلى استعداد لخلع ملابسها لتثبت له ذلك، تعطيه دفعة رائعة للأمام، وتثيره للقيام بمجهود أكبر، إنها كومضة البرق تكشف له فجأة منظرًا كاملاً. إن فتاة جذابة تجعل دماء الشباب تغني، فهي أشبه بمدينة مسورة يتطلع إليها بشوق، ويعرف أن الصعاب تواجهه إذا أراد امتلاكها، لكن حين تستسلم له يحدث كشف يشبه وميض القنبلة الذرية.

الكاتب الأمريكي جيمس دروت، كتب رواية ممتازة اسمها "العدو" (ترجمها صنع الله إبراهيم إلى العربية وصدرت عن دار الثقافة الجديدة. هـ.م.)، عن مهندس شاب عزم على أن يقوم بثورة في مهنته - الهندسة - وهناك فقرة تعبر عن الرعدة الرومانسية الأصلية لإعجابه بفتاة:

"كانت دائماً غريبة بالنسبة لي. حين كنا نمارس الحب، ونستمع بالقبل وإحتكاك الجسدين، تحت قنطرة أو على شاطئ معشب لمحرق مياه، أو في سيارة والدي، في أمسيات يوم الجمعة، لم يكن هناك حجل أو خوف، وكلما فكرت في الأمر، وكان ذلك نادراً، أعترف بأنني كنت الطرف الذي يتوقف قبل النشوة بقليل. إذا قبلتها تقبلني، وإذا دعتني ثديها المدورين، حتى من تحت حمالة الصدر، كانت تقوس ظهرها، ضاغطة ثديها كله في يدي، وتقبلني مرات ومرات، وما أن أنزلق بيدي تحت فستانها، حتى تقبلني بعمق، وتفتح ساقها لتأخذ يدي حريتها..".

¹ هذا هو في الواقع ما يجب أن يكون عليه الجنس في أحسن حالاته، لا مداعبات مختلطة في الظلام، يكون فيها الرجل والمرأة عدوين بعد الإنتهاء، ولكن اتحاد من الثقة، لا يجعل من استسلام الفتاة فرصة يستفيد منها الرجل، بل دافع يستثير إرادة القوة لديه تدفعه للكفاح من أجل العظمة.

الفصل الرابع

تناقضات الدافع الجنسى

حاولت في هذا الكتاب، أن ألزم بالحقائق عن الجنس، وتجنبت التعبير عن نظريتي الخاصة، فالحقائق عن الجسد الإنساني وعن الدور الذي لعبه الجنس في التاريخ - تتحدث عن نفسها.

ومن السهل، أن نتعلم الجانب الجسدي من الجنس، ولكننا سنكتشف أن هذه هي البداية فقط، وأن الجانب الآخر من الجنس - الجانب العقلي - أكثر عمقاً وتعقيداً حتى أننا نجعل معظمه.

إن الرغبة الجنسية هي أحد أكثر الحوافز أهمية في التجارب التي يخوضها الإنسان - خاصة الرجل. ومع ذلك، بالمقارنة، فإن الفعل الجنسي نفسه مُعَيَّبٌ للآمال. لماذا؟

إذا استطعنا إجابة هذا السؤال، فقد وضعنا أيدينا على مفتاح أسرار الوجود الإنساني نفسه وليس سر الجنس وحده.

هناك قصة قصيرة للكاتب الفرنسي جي. دي. موباسان تسمى "المجهول" تعطينا نقطة بداية جيدة.

بطلها، شاب يعيش في المدينة، يرى فتاة صغيرة في الشارع فتجذبه بشده، لم تكن جميلة جداً، لكن كان شعرها أسود، وجسمها متماسك، وتمشي بزهو واختيال. تبعها حتى ركبت عربة واختفت عن بصره. بعد عدة شهور قابلها ثانية في الشارع، فأثارت فيه الرغبة العنيفة السابقة في أن يمتلكها. وفقدنا مرة ثانية، ثم ذات صباح اصطدم بها فجأة في الشارع، فانتهاز الفرصة ليتحدث إليها، وزلق لسانه بإعجابه بها. وللهشنة تقبلت الأمر بهدوء ووعدته بأن تأتي لزيارته في صباح الأحد التالي.

ووصلت في الموعد، فحاول أن يخلع عنها ملابسها على الفور، لكنها قالت: أدر وجهك حتى أحلع ملابسني، لكنه ألقى نظرة من وراء كتفه عليها، فرأى علامة سوداء بين كتفها - كتلة صغيرة من الشعر، ففقد على الفور رغبته فيها. يقول: "حين حاولت أن أغني أغنية الحب، لم يكن لدي صوت.. أدنى صوت". وعلقت الفتاة المحروجة "لا أحد سيباً لوضعي في هذا الموقف المهرج" وغادرت.

حين قابلها في الشارع بعد ذلك، تجاهلت تحيته، وشعر بالرغبة فيها كما حدث في السابق، لكن بالطبع لن نتاح له فرصة أخرى.

وهكذا تنتهي القصة.

مامعنى هذه القصة؟ ولماذا فشل حين حاول ممارسة الجنس معها؟ يجب أن نلاحظ أولاً أن رغبته فيها كانت رغبة جسدية محضة، بمعنى رغبته في امتلاكها حتى لو كانت بلهاء أو نشالة. فشخصيتها لم تكن تهمة، إنها شهوة خالصة.

حين تحدث معها، كان يأمل أن تعطيه عنوانها حتى يزورها، وستكون هذه أول خطوة في النصر، لكنها عرضت أن تزوره، وهكذا تلقى الصدمة الأولى. حتى هذه اللحظة لم تكن بعد، شخصية حقيقية تماماً، هي أكثر قليلاً من صورة يمكن أن يتخيلها ليمارس عليها العادة السرية. وعرضها في أن تزوره وجه لكمة لتخيلاته. كان مرتبكاً قليلاً في الوقت الذي وصلت فيه، وكانت كتلة الشعر الأسود بين كتفها هي القشة الأخيرة. إنها شيء صدمه ولم يكن يتوقعه. لا يهم لماذا صدمته كتلة الشعر (هو يقول إنه تذكر فجأة أن المرأة الشيطانة والساحرات في ألف ليلة وليلة هن اللواتي لهن كتل من الشعر الأسود بين أكتافهن) فقد يكون أي شيء بالطبع هو الذي تقب فقاعة رغبته.

مثل آخر قد يوضح تماماً ماأريد قوله. في رواية "بل هوبكنز" المقدس والمدنس، يروي المؤلف قصة رجل وضعته الظروف في بيت واحد مع امرأة نائمة. ويقرر أن يفتصب المرأة. رغبته في امتلاكها ليست رغبة جسدية محضة، فهو يريد أن يسيطر عليها، فهو يحب السيطرة على الآخرين، وقد سبق أن حاول معها فرفضت الاستسلام له. ينهب إلى غرفتها، وحين يرى ملابسها على الكرسي تزداد رغبته، وتستيقظ، وحين تراه تقذف بأغطية السرير بعيداً، وتكشف جسدها العاري وتدعوه إليها.

وشعر في الحال أن رغبته قد تراجعت، وأدرك أنها قد كسبت ثانية. هناك شيء صريح وواضح في عريها دمر رغبته.

قد نفسر قصة موباسان بأن الرجل قد شعر بخوف منبعه الخرافة عد رؤيته كتلة الشعر بين كتفي المرأة، ولكن هذا لا ينطبق على قصة "المقدس والمدنس"، فليس هناك ما يخيف في جسد المرأة العادي، إذن مالذي جعل رغبة الرجل تراجعت؟.

التفسير أعمق بكثير من مجرد ممارسة الجنس، إنه شيء جوهري في تجربتنا كبشر.

صورة أخرى قد توضح الأمر أكثر، وهذه المرة قصة من الكتاب المقدس. في الكتاب الثاني لصمويل يحدثننا عن إغتصاب "أمون" لأخته "تامار"، كان أمون ابن الملك داود حزينا حتى أنه مرض لرغبته في أخته العذراء، وفكر صديقه "يوناداب" بحيلة يُحضر فيها الأخت لأخيها. فظاهر أمون بالمرض وأرسل في طلب أخته كي تأتي لتُمرضه، حين جاءت، أمسك بها وطلب منها الصعود على السرير والنوم معه، اعترضت، لكنه كان الأقوى فتغلب عليها.

ثم يأتي الجزء الذي يعيننا "وكرهها أمون جداً، وكانت كراهيته أكثر من حبه لها، واحتجت الفتاة قائلة أن هذه المعاملة السيئة أسوأ من الإغتصاب. وبلا سبب أمر أمون الخدم بإلقائها في الخارج وإغلاق الباب وراءها".

لم يفسر العهد القديم لماذا كره أمون أخته فجأة، وبلاشك أن مؤلف كتاب صمويل افترض أن قراءه سيفهمون دون شرح، وقد كان على حق.

هذا هو الجنس: رغبة حاحية لا نستطيع فهمها، ولا نستطيع عصيانها، ثم ينتهي الأمر وكأننا نستيقظ من حلم. وحين تسيطر علينا، يبدو كل شيء آخر غير مهم، فأمون على استعداد أن يخاطر بنيل عقوبة شديدة من أبيه لإشباع هذه الرغبة، فهي ليست رغبة عابرة، بل هي مستحوذة عليه، حتى أنه يُسرَّ بها إلى صديقه "يوناداب" ويجعله يغامر بإحضار أخته إلى غرفة نومه. حتى هذه المرحلة كان عملاً برغبة كالإعصار، ثم يبدو أنه استيقظ ليحد نفسه في السرير مع أخته، وتداعت النتائج عليه، فليس هناك مشاعر شخصية تجاهها، وربما لم يحبها كإنسانة فحضر بخيبة أمل، وبخيانة، بمعنى أنها هي التي خانتها، ولذا ألقاها في الخارج.

نلاحظ الآن أن الأمثلة الثلاثة التي ذكرتها، تشترك في شيء واحد: لا توجد أية مشاعر شخصية تجاه المرأة، فقط رغبة في امتلاك جسدها.

لو كان أمون مغرماً بتامار كرغبته في امتلاك جسدها، لسارت الأمور بشكل آخر، والأمر صحيح أيضاً بالنسبة لبطل موباسان أو هوبكنز.

العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة خليط من عنصرين: رغبة جسدية محضة، وتعلق شخصي، وقد يوجد أحدهما دون الآخر، ولا توجد علاقة ضرورية بينهما. ولقد قيل أيضاً أن التعلق أو الميل الشخصي قد يفسد الرغبة، والسبب واضح، فعلى المستوى الجنسي، أي امرأة تناسب أي رجل، ولكن نادراً ما يكون هناك حب وتفاهم حقيقي بين كل منهما.

معظم الزيجات، خاصة بين الشباب، تبدأ برغبة جسدية محضة، يرى الشاب فتاة جميلة، فلا يوجد آنذاك أكثر أهمية من أن تعطيه جسداً، وقد لا يكون بينهما أي شيء مشترك.

وبعد أسبوعين من شهر العسل، يشعر أنه قد ضُحك عليه، في الواقع ينتابه شعور كالذي انتاب أبنون بالنسبة لتامار، ومن المحتم أن تنتهي نسبة كبيرة من زيجات الشباب بالطلاق.

تقل حدة الجنس، ويصبح غمفاً عند معظم البشر بسبب عنصر العلاقة الشخصية. وليس معنى ذلك أن على البشر أن يتصرفوا كالكلاب، ولكن هناك حقيقة في هذه الأبيات الشعرية التي استشهد بها إيان فلمنج ذات مرة:

بعض الحب نار

وبعضه تراب

لكن أفضل أنواع الحب

هو الشهوة.

هناك بالطبع، جانب آخر للمسألة، فكل من الرجل والمرأة يريد الأمن العاطفي، والحياة العائلية قائمة على هذا الأمن، ولذا استمرت. وحين ندرك ذلك، فإننا قد نفهم دوافع الماركيز دي ساد مثلاً أو الشاويش برتراند. فهذان الرجلان أرادا جنساً محضاً، أرادا أن يشربا الويسكي دون ماء. في حالة "دي ساد" فقد كان فاسداً تماماً، وشخصية غير ناضجة، وكان غارقاً في ذاته ولا يحتاج علاقة شخصية مع أحد. وقد يقول قائل إن معظم البشر فاسدون وغير ناضجين، لكنهم يحتاجون إلى علاقة مع شخص ما، لذا فإن كثيراً من ممارساتهم الجنسية تظل غمفة، في معظم الحالات يكون هناك ماء أكثر من الويسكي حتى أنه يبدو بلا طعم.

لنعد إلى قصة اغتصاب تamar. يتضح لنا من القصة أن أمنون شخصيتان مختلفتان في جسد واحد.

الكاتب "الدوس هكسلي" كتب قصة طريفة اسمها "التاريخ الساحر لريتشارد جريناو" يتحول فيها شاب إلى كاتبة روائية في الليل، ويكتب روايات عاطفية متدفقة، بينما في النهار هو شاب مثقف ضيق الأفق. طبعاً هذا غير معقول، لكنه يشير إلى حقيقة أساسية في معظم البشر، وهذه الحقيقة يمكن رؤيتها بوضوح في مسألة الجنس. في داخلنا شخص يحول حذر يجب الأمن، وشخص متدفق ساحر.

الرأس يتوق إلى الأحاسيس القوية، والجنس ميدانه الرأس الساعن، ولا يوجد نشاط إنساني يجعلنا نعي أن بداخلنا شخصين سوى الجنس.

وإلى درجة ما، كلنا ريتشارد حريناو. نصف الوقت يستحوذ علينا موظف البنك الحريص، والنصف الآخر سائق سباق السيارات المندفع. وهذا حقيقي ليس في الجنس فقط بل في كل شيء نفعله.

معظم فترات حياتنا ضحلة ومملة مملوءة بالروتين، وتقبلها كأمر مفروغ منه، ثم تأتي لحظات يبدو فيها أننا نستطيع تغيير كل شيء لو امتلكننا الشجاعة والتصميم. في هذه اللحظات، هناك موظف البنك الحريص يصرخ في أذن، وسائق السباق المندفع يصرخ في الأذن الأخرى، ومن الصعب أن تختار بينهما. سائق السباق يقول "غامر"، وموظف البنك يقول "لا تغامر فمن المحتمل أن تخسر".

ومعظم حياتنا هي قصة الهزيمة التدريجية لسائق السباق.

كل طفل يريد حياة مثيرة، كل ولد يريد أن يكون طياراً أو ضابطاً، كل بنت تفكر في أن تصبح مضيئة حوية أو طبيبة، ويتصاعد الصراع في سنوات العشرينات، لكن العالم لا يقدم فرصة كبيرة للمغامرة، وجنوح الأحداث إحدى نتائج ذلك.

منذ مائة عام، كان الولد يستطيع أن يهرب للعمل في البحر، واليوم أفضل ما يمكن أن يفعله أن يغامر بسرقة سيارة أو القتال مع عصابة منافسة لعصابته.

في سن العشرين يصل معظم الناس إلى قناعة بأن موظف البنك الحريص هو الذي على حق، فيصبحون مواطنين طيبين وأرباب عائلات، ويختفي سائق السباق المغامر، أو على الأقل يصبح ظهوره أقل، سائق السباق هو الخاسر، والمجتمع هو الكاسب.

لكن هل هذا صحيح في كليته؟

إذن كيف وصلت حضارتنا إلى مستواها الحالي؟!.

يعود الفضل إلى رجال رفضوا أن يجعلوا من سائق السباق هو الخاسر، المستكشفون، متسلقوا الجبال، الرواد في كل المجالات، وآخرون كرهوا الطريقة التي يدار بها المجتمع، فأصبحوا متمردين وثواراً.

بدون هؤلاء المتمردين، لم نكن لتقدم، ولظل الأطفال يعملون في المصانع، وأمريكا يحكمها ملك، وروسيا مازالت تحت حكم القياصرة، إن سائق السباق هو أئمن جزء فينا، وتلميذه يعني تلميذ الحضارة.

وإلى جانب هؤلاء المغامرين والمستكشفين، هناك نوع آخر من البشر ليسوا على استعداد أيضاً للإستسلام إلى موظف البنك الحريص، وأعني بهم المثقفين: العلماء والشعراء والكُتاب والموسيقيون والفنانون، فكل منهم مدفوع بالدافع نفسه الذي لدى المستكشف أو متسلق الجبال.

هناك رجال لا يقبلون الحالة العادية للحياة اليومية برعبها وتكرارها. كان المستكشف يحلم
ببحيرات مجهولة وغابات بكر في مجاهل إفريقيا، والآن في عصر الفضاء ربما يحلم بها على كوكب
المريخ أو الزهرة.

العالم أو الشاعر أو الكاتب يحلم باستكشاف مناطق جديدة في العقل والخيال. هذا هو الدافع
الكبير وراء كل علم وفن، الحاجة للهروب من ملل الحياة اليومية، بقبائها ومشاكلها، ولإيجاد مكثف
أو مقو أكثر تنظيماً للعقل.

أود هنا أن أقحم قليلاً من سيرتي الذاتية، وأحاول أن أكون موجزاً: كان تدريبي الخاص كعالم،
ومازلت أذكر بوضوح شعور الإشباع الذي كان يتأبني عند قراءة الكتب العلمية وأنا في سن الحادية
عشر أو الثانية عشر، شعور الهروب من فوضى وعواطف عالم الطفولة بكل ملله وحقده وشعوره
بالذنب. في سن الحادية عشر تركت المدرسة وعملت في عمل أكرهه، وكانت النتيجة أنني فقدت
الاهتمام بالعلم وتحولت إلى الأدب والموسيقى للهروب من الشعور بالعبث.

وفي تلك الفترة استعرت كلمة "اللامتمي" من "برنارد شو" لأصف من يجدون أنفسهم في مثل
هذا الموقف من رفض ملل الحياة اليومية، ومع ذلك ليس لديهم فكرة محددة عما يريدون.

جميعنا نرغب في التوافق مع المجتمع، لأننا جميعاً نحتاج معنى ودرجة معينة من الأمان، لكن أحياناً
ينتج عن محاولة التوافق إحساس حاد بالقلق، خاصة إذا عمل المرء في عمل لا يناسبه، فلا يبق هناك
سوى رفض الأمان والبحث عن شيء آخر أكثر إشباعاً. ومن الواضح أن اللامتمي قد يكون أي
شخص منا، قد يكون شخصاً مزاج مستكشف، ويجد نفسه يعمل في بنك، أو مزاج ممثل أو مغني،
ويضطر للعمل في عمل يدوي، قد يكون أي نموذج يعمل في مكان غير مناسب. لكن جميع اللامتمين
يشتركون في شيء واحد، أن عنصر سائق السباق المغامر قد كُبت لديهم وأُحبط، ويحاول أن يتحرر.

حين كنت في الثالثة والعشرين، كتبت كتاب "اللامتمي"، ولقد دهشت حين اكتشفت عدد
الذين يعتبرون أنفسهم "لامتمين".

بعد طباعة الكتاب بأشهر، بدأت أتسلم عشرات الرسائل كل أسبوع، كلها تبدأ: عزيزي السيد
ولسون.. أنا لامتتم و....

من الواضح أن نجاح الكتاب يرجع إلى أن كثيراً من الناس في المجتمع المعاصر يشعرون بأنهم المثلثون.

وأميل إلى تقسيم اللامتمين إلى ثلاثة أنواع:

اللامتمي الجسدي، واللامتمي العاطفي، واللامتمي المثقف. وكلهم يشتركون في الحاجة لرفض
ملل واقع الحياة اليومية.

اللامتتمي المثقف يميل إلى الهروب إلى عالم الفلسفة أو العلم.

واللامتتمي العاطفي يميل إلى عالم الأدب والفن والشعر.

واللامتتمي الجسدي يهرب إلى المغامرة أو أي شيء يتطلب مهارة جسدية أو شجاعة.

وأعتقد أن معظم الجانحين من الأحداث يمكن تصنيفهم في هذه الفئة الأخيرة.

ولابد أن أعترف أنني أكثر اهتماماً باللامتتمي المثقف والعاطفي.

ولو كانت لدى المجتمع شجاعة وخيال أكبر لوحد حلاً لمسألة اللامتتمي الجسدي الذي نسميه الحدث الجانح. إنهم يريدون الإثارة والخطر، وليس صعباً أن نزودهم بها. لقد اقترح الكاتب الأمريكي "نورمان ميلر" مرة، أنه لابد من بناء صهاريج أسمتية ضخمة في المدن، حيث يمكن للشباب أن يمارس الغطس، مع قليل من سمك القرش لإضافة عنصر الخطر، لقد كان على صواب (في الترويج حيث كل فرد يستطيع الذهاب للتزلج في الجبال كل شتاء، لا يوجد، تقريباً شباب جانحون). لو أنفقت حكومات العالم جزءاً صغيراً جداً من ميزانية التسليح لإقامة مثل هذه "المخارج" للشباب، فلن تكون هناك مشكلة شباب جانح.

لكن مشكلة اللامتتمي المثقف أو العاطفي أكثر صعوبة، فالرجل الذي يخرج ليستكشف أواسط إفريقيا يتخلص من مشكلته عملياً، والعالم الذي يبدأ في اكتشاف الذرة يضع لنفسه مشاكل أعمق، العمل هو مكافأته، وينتهي طبيعياً بالتعب الجسدي والنوم، لكن التفكير لا يتوقف، بل يستمر.

ولأوضح أكثر: كل اللامتتمين يُطلب منهم أن يختاروا بين موظف البنك الحريص وسائق السباق المغامر. ان اختيار اللامتتمي الجسدي لا يتعدى ذلك، لكن بالنسبة للامتتمي العاطفي أو المثقف فإن اختياره يقوده إلى مسائل أكبر، إن عليه أن يواصل أبعد وأعمق. ليس كافياً أن يختار، إنه يريد أن يعرف لماذا يختار هذا أو ذاك؟.

قصة إغتصاب "تامار" توضح أن "أمنون" كان شاباً بلا عقل. لو كان لديه عقل لتساءل: هل جنت؟ من نصف ساعة كنت أرغب فيها أكثر من أي شيء في العالم، والآن أجدني أكرهها، فما هي الحقيقة؟ مشاعري آنذاك أم مشاعري الآن؟ هل كنت أعاني من الوهم، أم أنني أعاني منه الآن؟.

هناك تفسير واحد لمشكلة الجنس: إنه مبني على الأوهام. الأوهام نفسها التي كانت تسببها "سارينات" هورم بأغنياتهن التي تقود إلى الموت، أو بوق الزمار الذي يقود الأطفال إلى الموت. هل الجنس نوع من التنويم المغناطيسي؟.

هناك قصة "لمارك توين" هي توم سوير، يومر فيها توم أن ينظف السور تماماً عقاباً له، وجاء صبي يراقبه وهو يعمل، بدأ توم يصتفر ويظهر سعادته بالعمل، فطلب منه الصبي أن يأخذ دوراً في التنظيف،

فرفض نوم، وعرض الولد أن يعطيه بعض بنائير (بلي) اللعب، فتظاهر بالموافقة رغماً عنه، وفي الحال جمعت مجموعة من الأولاد، كل ينظر دوره في عملية التنظيف.

ويفسر مارك ثوين ذلك بقوله "العمل هو ما يجب على المرء أن يفعله، واللهم هو مالا يجب أن يفعله. ولقد استطاع نوم أن يوهم رفاهه أن العمل هو لعب". هل الدافع الجنسي يوهمنا بالطريقة نفسها، يعطينا المتعة ليصل إلى العمل الصعب وهو الإنجاب وتربية الأطفال؟.

وهذا هو نوع التساؤل الذي يحدث عند المثقف اللامثمي، هو غير قانع بالإختيار بين موظف البنك وسائق السباق، إنه يريد أن يعرف لماذا؟ يريد أن يعرف ماترمي إليه الحياة؟ وهل سيكون أفضل بإختيار هذا أو ذاك؟.

لأضرب مثلاً أوضح فيه طبيعة هذا الإختيار.

محاض الفيلسوف نيتشة تجربتين غير عاديتين، أثرتا على مجرى حياته وفلسفته بعمق. الأولى وقعت له وهو تلميذ بصحة علية. يصفها في رسالة له بقوله "بالأمس كانت هناك عاصفة مقبضة معلقة في السماء، فأسرعت إلى تلة قريبة، على قمة التل رأيت كوخاً بداخله رجل يقتل ولدين بينما ابنه يراقبه. وانفجرت العاصفة بفرقة هائلة من الرعد والبرق، فانشأني إحساس لا يمكن وصفه من اللذة والحياة. البرق والعاصفة عالمان مختلفان، قوى منطلقة بلا أخلاقيات، إرادة خالصة دون اضطراب المثقف - بالسعادة بالحرية".

وحدثت له التجربة الثانية بعد خمس سنوات أثناء الحرب البروسية سنة ١٨٧٠، حين كان في الثانية والعشرين من العمر، يعمل مع وحدة إسعاف. لقد أمرضه سفك الدماء والبؤس، وضعت صحته مرة ثانية، وذات مساء، بعد يوم شاق مع الجرحى، كان يسير قرب "ستراسبورج"، يشعر بالإرهاق والضيق، وفجأة سمع صوت خطوات خلفه، ووقع أقدام جنود مشاة. وبينما هو واقف في ظل حائط، عرف في الجنود وحدته القديمة ذاهبة إلى الميدان. منظر هؤلاء الجنود، يسرون بهذه السعادة والثقة نحو المعركة - ومن المحتمل نحو الموت - أعطاه ثانية إحساساً فائقاً بالسعادة والحياة. كتب في رسالة أنه اتضح له فجأة "أن أقوى وأسمى إرادة للحياة ليست في الكفاح الهزيل للبقاء حياً بأي ثمن، ولكن في إرادة الحرب. إرادة القوة".

ماحدث لنيتشة أن اتضح له فجأة رؤية ساطعة للإختيار بين موظف البنك وسائق السباق، بين الكفاح التافه للبقاء على قيد الحياة مهما كان الثمن، وبين إرادة القوة.

في "اللامثمي" استخدمت تجارب نيتشه هذه، وتجارب مشابهة لعباقرة آخرين، كنقطة بداية. فهم قد جعلوا السؤال الأساسي واضحاً جداً. كل شئ عظيم حققه البشر بُنيَ على التفاضل، بالإيمان بسائق السباق لا بموظف البنك الحريص.

لكن إذا كان الرجال العظام على حق في تفاؤلهم، فمعنى هذا أن معظم البشر قد ضيعوا حياتهم سدى. فالإنسان العادي حين تتباه هذه اللحظات من القوة والإثارة، يتباه التفكير بأن الإنسان ليس هو الدودة التي ظن أنه يشبهها. وسرعان ما تحبب الإثارة ويعود إلى واقع الحياة اليومية مؤثراً السلامة. لكن قلة من الرجال رفضت أن تقبل ضحالة واقع الحياة اليومية، وحققت كل ماحقه الإنسان حتى الآن.

إنها ليست مشكلة سهلة، لقد قضى نيتشة حياته كلها في محاولة لفهم رؤية على قمة تل، ولكنه فشل ومات مجنوناً. الشيء نفسه يمكن قوله عن "فان جوخ"، اللامتمي صاحب الأوهام.

حين ننظر إلى القرن التاسع عشر، وإلى القائمة الطويلة من العباقرة الذين ماتوا مجانين، أو انتحروا، أو ماتوا بالسل، ينتاب المرء إغراء قوي بأن من الأفضل له ألا يتدخل في هذه المشاكل. شخصياً لا أعتقد بذلك، وليس هذا هو المكان الذي أشرح فيه السبب.

وحديثي عن اللامتمين كان ضرورياً لفهم الدافع الجنسي للإنسان.

قد لا يكون لمعظمنا تجارب كروية نيتشة على قمة التل، لكن لدينا تجارب مشابهة، لحظات من الثقة واليقين الهائل تمر بنا، وحين تتلاشى، نجد أنفسنا نتساءل هل كان ذلك نوعاً من الوهم؟ أو أن هذا الملل المزعج لواقع الحياة اليومية هو الوهم؟.

كثير من الناس يعتقدون أنهم يستطيعون فهم سر الكون حين يسكرون، ولكن حين يستيقظون في صباح اليوم التالي لم يكن لديهم إلا آثار السكر.

وقد حרב الأطباء، بالطريقة نفسها، تأثير الكحول على سائقي الحافلات، واكتشفوا بأن الكحول يعطيهم مزيداً من الثقة، لكن يجعل كفاءتهم أقل، بعد عدة كؤوس من الويسكي، فإن السائق على استعداد أن يسوق حافلة في شارع أقل من عرضها.

الرغبة الجنسية القوية، تعطينا الإحساس بأننا نساق بقوة أكبر مما لدينا في العادة، فهي تحركنا بالطريقة التي يثير بها صوت البوق فرس الحرب، وتتيح لنا إحساساً مشابهاً لرؤية نيتشة على قمة التل. ولسوء الحظ، فإن نتائج طاعة نداء هذا البوق، تؤدي غالباً، إلى كارثة، خاصة للشباب غير المحارب.

إن لذة الفعل الجنسي، التي قد تستمر لمدة ربع ساعة، قد تقود إلى تسعة أشهر من الإزعاج للفتاة، أو إلى إزعاج طوال الحياة لكليهما.

في كثير من البلدان الفقيرة في العالم، يبدو الجنس هو اللذة الوحيدة التي تتيحها الحياة - حتى تتحول إلى واحدة من أكثر المتع كلفة.

الوحيدون الذين لا يتأبهم الشعور بالخوف من الجنس هم الأغنياء الذين يستطيعون تربية أي عدد من الأطفال، بعد أن حوّل الانفجار السكاني العالم إلى أحياء فقيرة مزدحمة، وأصبحنا نشك فيما إذا

كان الجنس هو أحد التجارب العظيمة التي يمارسها الإنسان، أو أنه حيلة دنيئة تغري الفئران للغوص في النهر.

حين يأخذ الرجل فتاة بين ذراعيه، فإنه يكبت النصف الذي يهمس له بداخله "احذر... إنها عملية نصب" (والشيء نفسه بالطبع بالنسبة للفتاة التي ستخسر أكثر)، ان النصفين يتصارعان بضراوة داخلهما، ويغدو الصراع أشرس إذا كانت رغبته جسدية محضة.

أما إذا كان الرجل يعرف المرأة ويثق كل منهما بالآخر، فإن مشاعر الشك تتضاءل.

ورعاً هذا هو السبب الذي جعل بطل موباسان يفشل في أن يغني أغنية حبه حين رأى كتلة الشعر على ظهر الفتاة، فخصلة الشعر لا ذنب لها، لكن الصدمة المفاجئة لرؤية شيء غير متوقع تجعل أحد المصارعين يُرخي قبضته للحظات، ليستفيد الآخر من ذلك على الفور. ان عدم ثقته تمسك بتلابيه وتتلأشى رغبته كما يخرج الهواء من عجلة مثقوبة.

والشيء نفسه، حدث في حالة بطل هوبكنز الذي اعتزم اغتصاب الفتاة في فراشها. لقد هباً نفسه لهذا الإغتصاب، بأن ترك لخياله العنان، فإن تكون الفتاة سلبية وعاجزة تجاه قوته، هو أحد الأركان الأساسية في عملية الإغتصاب. وحين ألقت الفتاة بأغطية السرير، وسمحت له بأن يراها عارية، فلقد ثقت بذلك فقاعة خياله، ولم تعد سلبية، إنها تتحدها، فأخلت بتوازن القوى بين المصارعين داخله، فاتفقت رغبته.

كل هذا يلقي بضوء عميق حول الجنس، بل حول أمور تتخطى الجنس لتشمل السلوك الإنساني كله.

لنأخذ مثلاً، حالة كلاسيكية من عدم التوافق الجنسي، هي حالة القاتل الجنسي "ريجنالد كريستي"، فقد كان رجلاً خجولاً عصائياً في الخامسة والخمسين من العمر عند اعتقاله، وقد قُتل في بيته الحقيق في "نوتنج هيل" ست نساء على الأقل بمن فيهن زوجته. ومعظم ضحاياه كن من العاهرات، وهنا يثور سؤال: لماذا كان يجب عليه أن يقتلهن؟.

من الواضح أنه كان يخاف النساء، ولا يستطيع امتلاكهن إلا إذا كن غير واعيات. وتشير الشواهد أنه كان يدعو النساء إلى بيته، ثم يسكرهن ويقنعهن بالجلوس على كرسي موصول بأنبوبة الغاز، حين تستسلم المرأة للغاز، يقوم بإغتصابها ثم ذبحها، ربما خوفاً مما قد يحدث حين تستيقظ.

كان "كريستي" يفقد رغبته الجنسية إذا أظهرت الفتاة أية علامة على فرديتها كإنسانة، مايريده هو فتاة أكثر بقليل من فتاة أحلام يقظته الجنسية، سلبية تماماً، حتى يستطيع أن يصل إلى لحظة نشوته، المعادلة لرؤية نبتة على قمة التل، وعليه بعد ذلك على الفور أن يواجه مشكلة ماسيقله بفتاة ميتة، وقد كان يخفيهن بدولاب في الحائط.

ألا يبدو عمله هذا، خطوة تالية، لما كان سيحدث لبطل موباسان، بكلمات أخرى، كل الإغترافات الجنسية لها الأساس أو الجذر نفسه: هذا التصادم بين العالم الواقعي، والعالم كما تود أن تراه. والفرق بين الشخص الطبيعي جنسياً، والشخص المنحرف، والمحرّم الجنسي هو فرق في الدرجة فقط.

قد تكون هذه نتيجة مزعجة، لكن تجاهلها لا يخدم أي هدف. فالحقيقة حول الجنس مزعجة. ويجب أن ندرك أن كل الرجال، ماعدا قلة، يشعرون بأن حقهم الجنسي مهضوم، بمعنى أنهم ينالون أقل مما يستحقون من المتعة الجنسية. وحين يقرأون عن قاتل جنسي مثل "جيرالد تومبسون"، قد يهزون رؤوسهم اعتراضاً، لكن اعتراضهم ينصب فقط على طريقة "تومبسون" بالإغتصاب بالقوة لنساء غير مستعدات لذلك. فهو كان يحاول تحقيق ما يريده كل الرجال - حرية امتلاك أية امرأة جميلة في العالم. لقد وضع بطل باربوس حقيقة أساسية: "ليست امرأة التي أريدها، بل كل النساء".

معظم الإغترافات الجنسية (وذلك لا يشمل الشذوذ الجنسي بالطبع) هي محاولة لتلمس تحقيق ذلك، كما نرى مثلاً في حالة المتلصص، فهو يرتكب نوعاً من الإغتصاب غير الضار، إنه ينتهك خصوصية المرأة بدل أن ينتهك جسدها. (لكن قد يقود الواحد للآخر، كما في حالة "فلويد" مثلاً، كان سائق لوري في تكساس، بدأ انحرافه كمتلصص وانتهى بقاتل جنسي لعدد من النساء). كذلك "الفيتيشية" - التعلق بأحد أشياء المرأة - هي بوضوح محاولة لإمتلاك نساء غريبات دون مشكلة التورط الشخصي. وخطوة واحدة أخرى تؤدي إلى إنحراف جنسي أخطر، كما في حالة الشاويش برتراند الذي يمارس الجنس مع الأموات، أو القاتل الجنسي كريستي. وخطوة أخرى قد تقود إلى السادية، فالرجل يريد فتاة أكثر قليلاً من حلم اليقظة الجنسي، ويحاول إقناع نفسه بذلك عن طريق تعذيبها.

يجب أن ندرك أن رغبة الذكر الجنسية في الأساس هي رغبة موضوعية. وقد ظلت الروايات الرومانسية تخبرنا لسنوات أن الحب هو أمر شخصي بدرجة كبيرة، وأن روميو وجوليت، أو ترستان وايزولدا، يتوافق كل منهما مع الآخر، بحيث أنهما يريدان أن يكونا معاً حتى بعد الموت. إنها فكرة مؤثرة، لكنها غير حقيقية بالنسبة لواقع الجنس. من الممكن أن نتحدث، بالطريقة نفسها، عن رجل يستمتع بطعامه بدرجة كبيرة حتى أنه يريد أن يتوحد معه حتى بعد الموت. وهذا كلام فارغ، إن الرجل يشبه النمر الذي يبحث عن وجبة جيدة.

وليس معنى ذلك أن الحب ليس موجوداً بين الرجل والمرأة، فالناس تحتاج بعضها البعض على المستوى الشخصي كما على المستوى الجنسي، ولكن الرومانسيين الكبار يصرون على إدماج الشخصي والجنسي معاً، ويسمون ذلك بالحب. وهذا تفكير مشوش.

وقد يوضح هذا الأمر جريمة وقعت في هولندا. "جان" و"إدا"، ولد وبنيت، كلاهما في الخامسة عشرة من العمر، وهما طفلان لأبوين محترمين. أحب كل منهما الآخر. وكان "جان" يحب أن يلعب لعبة الهنود الحمر، وكانت "إدا" تشاركه اللعب في دور سحينة على وشك أن يُسلخ رأسها، وتحرق. كان جان يرسم لها صوراً وهي مستلقية على ظهرها، ويعلم بالصلبان على الأماكن التي يريد أن يغرس فيها الدبابيس، وكانت "إدا" مفتونة بهذه الخيالات الغريبة، وتجده متعة، مساوية لمتعة جان، من تخيل نفسها السحينة التي على وشك أن يعذبها هذا الجلاد القاسي. لقد تناسبت خيالاتهما تماماً. واحتفظت "إدا" بيوميات عبرت فيها بشاعرية عن حبها "لجان"، وكتبت "أحبك، ولو قتلنني فلن أعتريض. الحب شيء لا يمكن فهمه".

ويوماً ما، فقد "جان" السيطرة على رغباته. اشترى سكين كشافة، واستعار حبل القفز الخاص بأخيه الأصغر، وأخذ "إدا" ليلاً إلى مكان مهجور لإطلاق النار، وربطها، برغبتها إلى بعض قضبان السكة الحديد. شعرت بالخوف بعد ذلك، وبدأت تناضل لفك نفسها، واستتارت بحركاتها، فبدأ يُحدث تقوياً يجسدها بالسكين، ثم طعنها وقطع رقبتها، وسلم نفسه للشرطة واعترف بكل شيء.

في هذه الحالة، نرى أن الحب بينهما كان ببساطة، تداخلاً بين خياليين وعالمين من الأحلام. حلم "جان" بفتاة رقيقة مثالية، مستسلمة تماماً وسليبة، وحلمت "إدا" بالاستسلام لقوة شرسة إيجابية (كتبت في مذكراتها: أعبدك يا وحش الوحوش). ليس الحب هو ما كان بينهما، فقد كانا يتكلمان لغة مختلفة، لكن كلا منهما، مناسب تماماً عالم حلم الآخر، حتى انطلق "جان" فجأة خارج عالم حلمها. فأدركت أنه بالفعل شخص آخر، كائن غريب، مرتخي (من المريح)، عنكبوت تعب من التظاهر أنه في حالة حب مع ذبابة.

ولذا ندرك قلة الإنحرافات الجنسية لدى المرأة بالمقارنة بالرجل، ليس لأن المرأة أقرب إلى الواقعية من الرجل، وليس لأنها يمكن أن تقبل حببها كهاهو، ولكن بسبب أن حلم المرأة يميل للسلبية، بينما حلم الرجل يميل للإيجابية، والإنثان، الرجال والنساء، يعيشون في عالم أحلامهم الخاص. ولذا فإن الرجل يحاول إخضاع المرأة لتناسب خياله، مثل العملاق "بروكريست" الذي يهبط الإنسان أو يقطع قدميه ليحمله مناسباً لسريره. ولذلك نرى انحرافاً واحداً عند المرأة - المازوخية أو حب تعذيب الذات - مقابل نصف دسنة من الإنحرافات عند الرجل.

ذكر عالم النفس "ستيكال" حالة غريبة لفتاة محبطة جنسياً، اعتادت أن تتخيل نفسها تستلقي عارية على "فرسة" الجزار، تنتظر القتل، ويأتي صبي الجزار ليلمسها بغلظة، حتى يأتي الجزار ويفحصها، وقبل أن يستل سكينه يضع إصبعه في فرجها، وهنا تنتاب الفتاة نشوة جنسية عارمة، وينتهي التخيل - قبل القتل الفعلي.

شخصية "إدا" تبدو في أساسها، مشابهة لهذه الفتاة، وحيالها ينتهي قبل القتل، ولسوء الحظ فإن
خيال حبيبها لم يتوقف.

لا أحاول هنا أن أفصح زيف فكرة الحب، فالإناس قد تكيّفوا فيما بينها علاقات قوية وعميقة،
بالضبط كالوحد الشخصي الحقيقي الذي تشعر به نحو البقال الذي تشتري منه حاجاتك، لكن علاقتك
به ما زالت قائمة على أساس أنه يزودك بما تحتاجه من بقالة، وأنت تزوده بما يحتاجه من نقود. أو
كعلاقة البقال بزوجته، فهي قائمة على أساس أنها تزوده بما يحتاجه، وهو يزودها بما تحتاجه.

إذا أدركنا ذلك، نكون قد فهمنا أكثر الأشياء أهمية حول الجنس، وأيضاً عن حياة الجنس
البشري. ولا نعود إلى تقسيم عالم الجنس إلى طبيعي، وغير طبيعي. ولكن هذا لا يعني أن الجنس كله
طبيعي، فذلك سيكون نوعاً من العبث، لكنني أود القول أن الجنس كله، بشكل أو بآخر أمر غير
طبيعي، لأن هناك في الوجود البشري كله شيئاً غير طبيعي. نحن نؤمن بأن الجنس طبيعي لأننا نعتقد
أنه مثل الأكل والشرب، شهية جسدية مجبّية. إنه ليس كذلك، هناك الكثير من الخداع حول الجنس،
إنه أكبر الخدع السحرية لو فكرنا فيه قليلاً لكن السؤال: إذا كان الجنس خدعة سحرية.. فمن هو الساحر
في الحقيقة؟ هذا هو السؤال الذي حاول الفلاسفة والقديسون الإجابة عليه منذ تعلم الإنسان التفكير.

وهذا هو السبب الحيوي المهم الذي يدفعنا أن نتعلم كيف نفكر بذكاء حول موضوع الجنس.

الفصل الخامس

معركة الأدب الجنسى الكبيرة

من المشكوك فيه أن تكون هناك أية ثورة جنسية بدون الكتب، فلنلق نظرة أقرب وأكثر تفصيلاً على هذه الثورة الجنسية في القرن العشرين، ونرى إلى أين تقودنا.

كان القرن التاسع عشر هو قرن الحب الرومانسى، وكان شعاره "الحب يجعل العالم يدور"، ورؤيته الجوهريّة، إنه لا يوجد من هو أهم من عاشقين يعيشان معاً في سعادة.

ومازلنا نجد كثيراً من هذا الحب الرومانسى في مجلات المرأة المعاصرة، لكن في القرن التاسع عشر وُجدت روايات أدبية كبيرة تُعبر عنه مثل "مرتفعات ويذرنج" أو "تريستان وايزولدا"، وكانت هذه الأعمال تقول "الحب أكثر أهمية من الموت"، ولأنها أعمال أدبية كبيرة، فإنها تقنعك بأن ذلك حقيقي.

لكن حين تنظر إليها بدقة، فستجد أن القرن الرومانسي لم يكن على تلك الدرجة من الرومانسية. لو فكرت في كتابه العظام، لوحدت أن قليلاً منهم من شغل نفسه كثيراً بالحب - ديكنز، تاكري، تولستوي، ديستوفسكي، إبسن، ... وغيرهم - إنه المستوى الأرخص من الأدب هو الذي أعطى الحب أهميته تلك. كانت هناك قطعان من الروايات اللواتي أغنيتن من السمسرة بمجوع المرأة الفيكتورية للحب والرومانسية، وكان المسرح يعج بموسيقى الحب الرومانسي، وكله وجدان مكثف.

وحين جرّو "فلوبير" على كتابة رواية واقعية - مدام بوفاري - عن امرأة حطمت زواجها لتعطشها للحب الرومانسي، أتهم بأنه أخس وأقذر متشائم ساخر.

وبعد سنوات قليلة حدث الشيء نفسه "لإبسن" حين تعرض في مسرحيته "بيت الدمية" لزواج رومانسي تماماً، ثم جعل بطلته تترك زوجها وأطفالها لتبحث عن ذاتها، وكانت رسالة إبسن "كل هذا الحب الرومانسي كذبة سخيفة، فالحياة قد خلقت لما هو أهم من ذلك بكثير".

في نهاية القرن التاسع عشر، بدأت ثورة التحرر الجنسي تشق طريقها، فقد حدث نوع من الإثارة حين صور برناردشو النساء بعقل مستقل، يردن الرجل ويسعون للفوز به. وكاد ه.ج. ويلز أن يحاكم على روايته "أنا فيرونيكا"، وهي عن فتاة صغيرة تستمتع بفعل الحب بحرية.

حتى د.ه. لورنس الذي نشر أولى رواياته سنة ١٩١٠ وجد نفسه وسط المتاعب بتهمة صراحته الشديدة حول الجنس في روايته "الخاطئ"، ثم مُنعت روايته "نساء عاشقات". وكل مشكلة "لورنس" أنه كان شاعراً جرّو أن يكون صريحاً حول الجنس. إن كيتس، وشيلي، ووردزورث، قد يعتقدون بأهمية الجنس، لكن لا يمكنهم أن يكونوا صرحاء حوله، وكان عليهم أن يقتصروا بتصوير نشواتهم على جمال الطبيعة. وشعر لورنس أن معظم الناس قد أصابهم العمى والصمم عن أحد الأشياء المهمة في الحياة - وهو الجنس. وشعر أيضاً أن الحياة الحديثة تزداد ضحالة وتفاهة وعدم إقناع. وأوضح في روايته "عشيق الليدي تشاترلي" أن المرأة التي تشعر بالضيق والقلق، تجد معنى أعمق للواقع، في حكاية حب مع الحارس. فلورنس يرى أن الجنس هو أهم ما يمكن أن يحدث لرجل أو امرأة، ولكن يجب أن نلاحظ أن حكاية الحب الشعرية بين السيدة "تشاترلي" وحارسها، وقعت في كوخ وسط الغابة. إن لورنس يكره المدن الحديثة بقبحها وتعقيداتها، بالضبط كما كره وردزورث لندن. فالطبيعة مهمة له كالجنس تماماً، وهو يكون في أحسن حالاته ككاتب حين يصف الطبيعة.

كان لورنس شخصاً وحيداً في ثورة التحرر الجنسي، معظم الثوار الآخرين كانوا مهتمين بالتدمير فقط، وبالتخلص من المحرمات القديمة للفيكتوريين، والسخرية من العاطفة القديمة.

رواية "عوليس" لجيمس جويس، التي ظهرت قبل رواية "ليدي تشاترلي"، صدمت الكثيرين ببذاتها. وهناك كثير من الصحة في هذا القول، فقد أراد "جويس" أن يكون بذيئاً. أراد أن يصد

الناس بأن يسجل في روايته العبارات التي لا يراها الناس إلا على حدران المراهيض. كان "جويس" في الأربعين حين نشرت عوليس، وقد شعر أنه أهمل فترة طويلة، وأراد أن يجلس، ويرى الناس يتحدثون عن روايته. ولقد استخدم في مشهد بيت الدعارة كمية من الكلمات التي لم تطبع على ورق من قبل، كما أنهى كتابه بأن جعل البطل يقبل موعزة زوجته.

لقد كانت "عوليس" هي الرواية التي شجعت كتابة الأدب الجنسي الذي مازال يكتب حتى اليوم. قال النقاد الجادون "إنها رواية هامة جداً، مملوءة بالعقيرة والأصالة". وأحباب الجمهور المصدوم "قد تكونون على صواب، ولكن ماذا يحدث لو تسامحنا مع هذا النوع من القذارة بمحنة أصالة الكتاب؟ سنجد أن كل مراهق يقرأ هذا الأدب، يمارس الإنحراف في سن الرابعة عشر". ويجب المدافعون "كلام فارغ. فالمرهقون يعرفون عن الجنس ما يعرفه البالفون، ولا ضرر من إبراز هذه المعرفة علناً". الجانيان لديهما بعض الحق. فالجمهور يبالغ من خطر نشر كتاب كعوليس علانية، فهو كتاب صعب القراءة، وأي مراهق لديه الذكاء الكافي لقراءته، فهو بالتأكيد سيكون لديه من الذكاء ما يمنعه من الفساد. لكن الجمهور أيضاً، ليس على خطأ مطلق، فعوليس شكلت سابقة، أدت إلى النشر العلني لعدد كبير من كتب الأدب الجنسي.

الجنس في عوليس، كان القصد منه أن يصدم، ومشهد بيت الدعارة صفقة على الوجه مقصودة لترويع القارئ، لكن الجزء الأكبر من الرواية، وهي تزيد على سبعمائة صفحة، هو وصف دقيق بطيء لكل فكرة أو عمل يقوم به عدد من الناس العاديين خلال يوم عادي. عنصر الصدمة رفع الكتاب كله إلى مستوى جديد من الإهمال كنزوة سيمفونية، وبدون الجنس والبذاءة فإن الكتاب يكون مملاً غير مقروء.

وقد وقع الروائيون قبل جويس، في متاعب بسبب البذاءة، توماس هاردي وإميل زولا على سبيل المثال، لكنهم كانوا يدافعون عن أنفسهم بالقول إن المشاهد في كتبهم ليست بذيفة ولكنها واقعية ومستمدة من الحياة. أما الآن، فبيت الدعارة الذي صوّره جويس لم يكن يقصد به أن يكون واقعياً كالحياة، إنه نوع من الكابوس الذي يجري في ذهن إحدى الشخصيات، لقد قصد به أن يصدم. وقد كان يوماً أغراً حين سمح القانون سنة ١٩٣٠ بالنشر العلني لرواية عوليس في إنجلترا وأمريكا.

ولقد استخدم الكاتب الأمريكي وليم فوكنر أساليب جيمس جويس الصادمة في كثير من رواياته. وتشعر وأنت تقرأه كيف يحاول استخدام الجنس والعنف لضرب قارئه في الصميم. إنه يريد تقديم مشهد قاس ومتوحش من الحياة، والعنف أداة مفيدة للغاية من هذه الناحية. في روايته "الصنعب والعنف" هناك "تيمة" قوية في موضوع الزنا بالمحارم وكذلك حول الإنتحار. في روايته "المعبد" يتحدث عن فتاة غنية يخطفها أحد رجال العصابات، ويزيل بكارتها بعرنوس ذرة لعجزه الجنسي، وبعد ذلك يسمح لرفيق له أن يمارس معها الجنس بينما هو ينام على السرير، مرتدياً قبعته ويصهل كالفرس. وتنتهي الرواية بحرق رجل برئى على يد الرعايع بتهمة الإغتصاب.

حين نقول أن "فوكتر" يقصد أن يصدم قارئه، فنحن لا ننقده، فجميع كتبه، مثله مثل لورنس، هي نقد للعالم الحديث، والصدمة وسيلة مهمة للتعبير عن ذلك. إنه شاعر آخر متمرد. ولا أحاول هنا أن أعني، ضمناً، إن لورنس وجويس وفوكتر فوق النقد. فهناك عنصر طفولي مفسد، في لورنس، يجعله غالباً متعذراً على القراءة برغم كل نواياه الطيبة، فرواية "ليدي تشاترلي" رواية فقيرة جداً. وكذلك هناك العنصر نفسه من عدم النضج عند جويس وفوكتر، فكلاهما لم ينضج تماماً، ولقد فشل فوكتر في النضج لأنه لم يواجه قط مشاكله، وفضل أن يقضي معظم وقته مخموراً.

ومازال القانون يحارب معركة صعبة ضد البذاءة، ولذا، وإذا كانت "عوليس" ليست هي إشارة البدء في إنهمار سيل من الكتب الصادمة عمداً، فإن "معبد" فوكتر، المتأثرة بعوليس، بدأت هذه المؤضة، حتى أن في أواخر الثلاثينيات. كانت هناك ملايين من الطباعات الشعبية لمثل هذه الروايات في يد الجمهور، تتحدث عن العصابات والجنس والسادية.

ومن أشهر هذه الروايات، رواية "لازهور للأتسة بلانديش" من تأليف هاذلي شيس، وهي مثل "المعبد" تتحدث عن خطف فتاة غنية على يد رجال عصابة أحد أقرانها منحرف. ولقد اعتزم رجال العصابة قتل "مس بلانديش". بمجرد أن يتسلموا الفدية، لكن رئيسهم، وهي امرأة عجوز شريرة، وقفت ضد قرارهم، فقد كان لديها ابن سادي اعتاد أن يقطع رقاب القطط وهو صغير، ولم يُد أي اهتمام بالمرأة حتى ظهرت بلانديش، فسلمتها إليه ولم يحدد المؤلف ماذا حدث لها بالضبط، لكنه يخبرنا بأن الابن مارس عليها كل لذة استطاع عقله الملتوي أن يخترعها، في نهاية الرواية حين قُتل جميع أفراد العصابة وأنقذت مس بلانديش، انتحرت، ربما لأنها لم تستطع الحياة دون اهتمامات الابن الشاذ. ومثل معظم روايات العصابات في ذلك الوقت، فرواية "مس بلانديش" ساخرة تماماً، وليس فيها أبطال، ورجال البوليس قساة ومرتشون كرجال العصابات، والأحداث تدور في عالم بلا قيم.

هذا النوع من الروايات أصبح شعبياً بدرجة كبيرة في الأربعينيات، واستخدم المؤلفون أسماء توحى مضامينها بالعنف، وعناوين مثل "لا تستديري أيتها السيدة" أو "سأبصق على قبرك". إحدى الروايات تبدأ باختطاف ابنة رئيس شرطة، ويقفز شرطي على عربة العصابة، فينحرف سائق العصابة عمداً تجاه عربة أخرى ليسحق الرجل بين العريتين، مع أوصاف مناسبة لسحق شظايا العظم، وانبثاق الدم. وتؤخذ الفتاة إلى مخبأ زعيم العصابة ليستجوبها، وحين تهدده بضربها على فكها، فتقع على الأرض، وتشتبك "حونلتها" بكرسي مما يكشف ملابسها الداخلية. يتبع ذلك مشهد اغتصاب، ورئيس العصابة يتمم وهو يتحسس ملابسها "ستكونين بخير ياطفلي".

هذا النوع من الكتابة - دون أية ميزة أدبية - انتشر علانية عبر الطباعات الشعبية منذ الأربعينيات، ومازال حتى اليوم، وهو نتيجة مباشرة لرواية "المعبد" لفوكتر، التي كانت بدورها نتيجة مباشرة لعوليس. ولذا فإن الذين اعترضوا على نشر عوليس، لم يكونوا على خطأ تماماً في تأثيرها السيء.

في منتصف الخمسينيات، قدم "إيان فليمنج" اتجاهًا جديدًا لرواية العصابات في سلسلة رواياته عن جيمس بوند، هذه الروايات مكتوبة بشكل أفضل من معظم روايات العصابات في الأربعينيات. فهو يكتب أفضل من أسلافه الذين ابتدعوا شخصيات مثل القديس، وتوف، وبولدوج دراموند، وماشابه. كما أن هناك عنصراً واعياً من السخرية بالنفس في أعماله، لكنها جميعاً أعمال قادرة بشكل واضح.

بداية، من الضروري لرواية العنف أن تكون شخصياتها شريرة وقاسية تماماً، ولقد اختار "فليمنج" الروس ليكونوا كبش الفداء. وليس بالضرورة أن يكون المرء شيوعياً أو متعاطفاً مع الشيوعية ليدرك أن عدااء "فليمنج" للروس يحمل طبيعة شريرة. إنه يذكرنا بمعاداة هتلر للسامية. وفي مقابلة مع مجلة "بلاي بوي" قبل أن يموت بفترة قصيرة، حاول "فليمنج" أن يقلل من هذا العدااء بقوله إنه كان يداعب الروس، كما لو أن الأمر كله سخرية بريئة مقبولة - ولكن أي قارئ لروايته "من روسيا مع حبي" سيدرك أنها كراهية عرقية تماماً. الذي يهمنا هنا، هو موقف فليمنج من الجنس، وهو موقف غير حقيقي مثل معظم المواقف العاطفية الزائفة في الروايات الفكرية، وكله عبارة عن أحلام يقظة طالب مدرسة.

إن مكافأة "بوند" في كفاحه ضد وحوش الشر، أن يجد نفسه باستمرار في علاقة حميمة مع فتيات باهرات الجمال. ملابس داخلية سوداء. كل أحلام اليقظة التي يتخيلها تلميذ. مدرسة، نجدها في كتب جيمس بوند. لقد جمع "فليمنج" كل العناصر التي أنجحت روايات الجريمة الأولى: عربية القديس الغالية، تذوق الطعام الجيد، سادية لازهور لمس بلانديش، رجال عصابات ميكي سبيلين ودارس كلنتينو، وأعاد إنتاجها جميعاً بعد صقلها. والنتيجة قذارة مسلية ممزوجة بالسم.

هناك شيء ما ودي، يشدك دون أن تشعر عند قراءتك لشرلوك هولمز أو بولدج دراموند، ويمكنك أن تتلذذ عواطف رواد المدرسة القديمة. تمتع، لكن في روايات جيمس بوند، فالأمر مختلف، حتى عنصر المحاكاة التهكمية للتراث لا يستطيع أن يبعد عنك الإحساس بأن كل هذا الاستغلال للسخرية من بذاءات العالم الحديث، ماهر إلا حيلة من أجل كسب النقود. إنها أفضل قليلاً من تلك المنسوخات المطبوعة على الآلة الكاتبة التي كتبت خصيصاً للمنحرفين الذين يحبون إغتصاب الأطفال أو أن يُضربوا، والتي تباع سراً في تقاطع "شيرنج كروس". كذلك يتناكب الشعور نفسه الذي مر بك عند قراءة رواية "لازهور لمس بلانديش"، وهو أن العالم الذي نعيش فيه مكوّن من القسوة والعنف والشهوة، مع الفارق بأن رجال العصابات اليوم توقفوا عن خطف الوارثات، فهم يسرقون قنابل ذرية، ويهددون بتدمير مدن حديثة إذا لم تدفع لهم فدية بالملايين. ومن ناحية أخرى، فإن "فليمنج" يتجه إلى القيم المنحرفة عن قصد كما كان يفعل الماركيز دي ساد.

لقد قصد "فليمنج" أن يكون "بوند" بطلاً يتحلّى بصفات هي أصلاً موجودة في الأشرار. فم رفيع قاس، حب للرفاهية والحياة السهلة، ترخيص بقتل الآخرين، وميل لنبد الفتيات. بمجرد أن يمتلكهن.

اهتممت بروايات بوند لأنها التطور المنطقي لعدم منع نشر رواية عوليس. المنادون بعدم المنع قالوا أننا سنجنح شراً أكثر في حالة استمرار منع طبع هذه الكتب. وأحياناً يكون المطالبون بالمنع، محافظين متعصبين، غودجهم في الأدب هو رايدر هيجارد مثلاً، لكن الكثير منهم أراد أن يعرف ببساطة، ماهو الحد الفاصل بين الأدب ومثل هذه الكتب التي تباع سراً والمكتوبة خصيصاً للذين يحبون أن يُجلدوا بالسياط، أو يرتدوا ملابس النساء، وتباع لأي مراهق يريد شرائها. ولسوء الحظ، فإن كتب جيمس بوند، تشير إلى أنهم على حق.

ليس الإعتراض هنا على المواجهة الجادة للسادية أو الإنحرافات الأخرى، ولكن على استغلال هذه الموضوعات عن قصد من أجل كسب النقود.

لدينا قوانين ضد بيع المخدرات علناً، لأننا نعرف أن هناك أناساً تجذبهم فكرة تدمير الذات. لدينا قوانين ضد إفساد القاصرين، لأننا نعرف أن مبتزّي المال يمكنهم فتح بيوت دعارة ناجحة جداً للرجال الذين يستمتعون بعمارة الجنس مع القاصرين. ولا أحد يفترض بأن إلغاء مثل هذه القوانين سيجعل للهيروين شعبية كالويسكي، أو أن الرجال سيغيرون ذوقهم ويستمتعون بإغواء فتيات في العاشرة، لكننا ندرك أن هناك نسبة ضئيلة ستصبح مدمنة للهيروين أو مُغوية للقصر، وهذا كاف لكي نبقى على هذه القوانين.

والحالة ضد البيع العلني لكتب الأدب الجنسي مشابهة لذلك، وليس الأمر قضية غباء مجموعة من المحافظين ضد المتحررين الأذكياء.

واستمرت الثورة الجنسية في الخمسينيات والستينيات وحتى الآن، وتستحق أن نتابعها ببعض التفصيل. أول الفيث في الأدب الجنسي المعاصر، كانت "لوليتا" لفلاديمير نابوكوف، طبعت وبيعت سراً للسائحين الأمريكيين في باريس سنة ١٩٥٥، وكان موضوعها عن رجل بالغ يغوي فتاة صغيرة.

هناك الكثير مما يمكن قوله مدحاً في الكتاب، فهو مكتوب بأسلوب جيد، على يد كاتب ساذج أصيل، ولا اختلاف هناك بأنها كتبت من أجل كسب النقود. موضوعها الحقيقي، ليس، ببساطة، هو إنحراف رجل في أواسط العمر، إنها عن كل الرغبات الجنسية غير المشبعة في مجتمعنا، كل الجوع الجنسي الذي يعتبر الذكر أنه لم يحصل عليه، بكلمات أخرى، إنها تنويع على كلمات باربوس "ليست امرأة التي أريدها، بل كل النساء".

لوليتا هي رمز لكل ملايين الفتيات المرغوبات واللواتي يصعب الحصول عليهن في كل مدينة، الفتيات اللواتي ينظر الرجل إليهن كالطفل ينظر إلى واجهة محل للحلويات. وهذا هو السبب، بلاشك، الذي سمح بعد ذلك لأن تطبع لوليتا في إنجلترا وأمريكا دون تحفظات. وبرغم موضوعها فهي

معتبر من الأعمال الأدبية الجيدة، بالإضافة إلى أنها لا تحتوي على أية مشاهد جنسية مثيرة. معظم الجنس فيها ترك للخيال. وهكذا أصبحت من الكتب الرائجة جداً في أمريكا وبريطانيا، وسقط حاجز آخر.

كانت الخطوة التالية، نشر رواية "عشيق الليدي تشارتلي". علناً في أمريكا، وأصبحت أيضاً من الكتب الرائجة جداً. وبلاشك كان يمكن أن تُنشر في بريطانيا دون ضجة لو صدرت في طبعة فاخرة غالبية الثمن بغلاف سميك، لكن ناشري الكتب الشعبية أصروا على نشرها مباشرة في طبعة ذات غلاف ورقي رخيص. ورفعت قضية ضد الكتاب، وحورب طويلاً بعنف، لكن النتيجة كانت نشره كاملاً دون حذف في إنجلترا سنة ١٩٦٠.

وبدأ الناشرون الأمريكيون يتنافسون في البحث عن الكلاسيكيات البذيئة ونشرها، وكان هنري ميللر هو التالي على القائمة، وكانت روايته "مدار السرطان" هي الكتاب المثالي لمثل هذا الهدف. لقد مدحها عدد من النقاد الجادين منذ ظهورها في باريس في الثلاثينيات، لكنها رواية مملّة للغاية، وهي تصف حياة ميللر الخاصة وهو صعلوك في باريس. كان ميللر كاتباً محبطاً، وقد صب كمية كبيرة من الإدعاء في روايته - مستخدماً أسلوب النثر الشعري وماشابه حتى يمكن تصنيف الكتاب بسهولة كأدب. ولم تكن هناك محاولة لمنعه في أمريكا - عدا بعض الولايات - وأصبح فوراً من الكتب الرائجة، ومهد الطريق لصدور كتب ميللر الأخرى، مثل مدار الجدي وربيع أسود. ونُشر في بريطانيا الجزء الثاني والثالث من ثلاثيته "الصلب الوردي" ولم يطبع في أمريكا لأسباب تتعلق بتهمة التشهير، وتأخرت طباعة الجزء الأول Sexus لما يتضمنه من جنس، وكان الحل هو صدور طبعة فاخرة غالية تصرف نظر المدعي العام عن مصادرة الكتاب.

وأصبح الآن، كقاعدة عامة، إن أي كتاب يمكن اعتباره جاداً في موضوعه، يُطبع دون مشاكل. وكانت طباعة "حياتي وغرامياتي" لفرانك هاريس علامة أخرى، وهو كتاب ضخم في أكثر من ألف صفحة، لا يوجد فيها أكثر من خمسين صفحة جنسية، والباقي سرد لقصص لا تنتهي عن معارف هاريس المميزين.

وإذا عُرف بأن الأدب الجنسي هو استغلال للجنس الخام للحصول على المال، فكتاب هاريس ليس جنسياً من هذه الناحية، فقد كان إهتمام هاريس بالنقد أقل من إهتمامه بإظهار نفسه كم كان عظيماً.

لكن حدث تطور عجيب ومهم في مسألة نشر الكتب الجنسية.

هوجم مرة كتاب على أنه جنسي، فأصبح على الفور وبشكل آلي على قائمة أشهر المبيعات. وهكذا أدرك حراس الأخلاق أنه إذا لم يكن الكتاب فاضحاً بدرجة كبيرة، فلن يتحدثوا عنه حتى لا يصبحوا وكلاء للإعلان عن كتب الأدب الجنسي. والنتيجة أن مئات من الروايات المعاصرة تحتوي على مشاهد جنسية حرص كل فرد على عدم ذكرها، والقارئ لها بالمصادفة، سيصاب بالرعب حين

يكشف مشاهد توقف شعر الرأس من الانحراف الجنسي، في وسط رواية شعبية اشتراها من بائع في محطة السكة الحديد.

من أمثلة ذلك الروائي "هارولد روبنز" الذي نشر عدة روايات دون أن يثير عليه أحد. ثم جاءت روايته "بائع السجاد الجائلون"، ويتاب المرء احساس بأنه قال إذا لم تأت هذه الرواية بنتيجة، فلا شئ سيأتي بها. وبالطبع أنت أكلها. كل الروايات الجنسية التي كانت محظورة يمكنك الآن الحصول عليها من أي كشك للكتب، في أية محطة، وبطبعة شعبية رخيصة.

النتيجة المثيرة لكل ذلك، أن الجنس لم يعد كافياً لوضع كتاب على قائمة الكتب الرائجة، ولكي يحقق ذلك لابد أن يحمل الكتاب وجهة نظر، مثل رواية "تقرير شلمان The chapman report" لإرنست هينغ، وقد بناها على بحوث "كينزي" في الجنس، وطبق هذه البحوث على ضاحية أمريكية غامضة، أو مثل رواية "بايتون بليس" لجريس ميتاليوس، التي أخذت على عاتقها كشف ستر بلدة محترمة صغيرة.

لكن عشرات من الكتب التي قلدت هاتين الروائيتين، لم تصل قط إلى قائمة الكتب الرائجة، لأن النقاد لم يكونوا على استعداد لذكر صراحتها الجنسية، أو محاولة منع كل كتاب يتأرجح على الحبل الدقيق للجنس الفاضح.

وأخيراً، تساوت الأمور، وبدأت تصدر روايات ما كان لها أن تصدر قبل عشر سنوات مثلاً. وسأعرض هنا لروائيتين، أحدهما للروائي الأمريكي - من جيل الغضب أو البيتنكس - "وليم بوروز"، وهي بعنوان "الغداء العاري The naked lunch"، والأخرى بعنوان "كاندي" بقلم تيري سوذرن وماسون هوفينبرج. "الغداء العاري" رواية عن خيالات لمدمن مخدرات عن نفسه، وهو ذو ميول لواطية وسادية قوية. ويبدو أن الرواية واقعة تحت تأثير قوى من مشهد الكابوس في رواية عوليس، فكل شئ يحدث في جو كابوسي من الممكن أن يحدث فيه أي شئ. إنه تكنيك الروايات البوليسية، منقول إلى الأدب بأقصى حالات الجنون. حرية كاملة لكل الخيالات السادية والجنسية دون محاولة لسرد قصة، إنه كابوس كتبه شخص مُعجب بلغة جويس، معجونة بكتب الخيال العلمي ودراكيولا. يقول مثلاً "وابل من الجماجم البللورية هشمت البيت الأخضر إلى شظايا في القمر الشتائي. بركة مغطاة برغة خضراء في حديقة فرنسية حرة، وضفادع ضخمة تتزعم قطعاً، ترتفع ببطء من الماء على شاطئ طيني، تعزف على آلات وترية.. الخ".

إن قراءة "الغداء العاري" تعطيك إحساساً غريباً بالعبث وبطلان كل شئ. وبالرغم من أن الجنس فعل بسيط، فإن الهندوس يزعمون أن هناك تسعة وستين وضعاً، وقد يصعب عليك تخيل نصف هذا العدد، لكن قراءة "بوروز" تشعرك بأنه ليس هناك حدوداً لممارسة الجنس أكثر مما تقرأ، بالضبط كما في كتاب "دي ساد" مائة وعشرون يوماً في سدوم. إنها تشبه شخصاً نشأ في خو دهن صارم، وفجأة

قرر أن ينغمس في الخطيئة، ويتذوق كل لذة ممنوعة ممكنة، وبعد أيام من هذا الإنغماس، يكشف أنه لم يبق شيء يفعله. لقد لمس القاع، وبدون الحس الديني القديم، فإن الخطيئة تصبح بلا معنى، فحين تتخطى عن كل قيمة، فإن المتعة تتوقف أن تكون متعة.

بإختصار، إن أكثر الأشياء أهمية عند "بوروز"، كما هي عند "دي ساد"، أنه يريد أن يكون شريراً وصارماً، ويكشف أن ذلك مستحيلًا. فما أن تنتهي من الرفس والتمرد ضد الأشياء التي أخافتك واعتدت عليك وأنت طفل، حتى تتلاشى بسرعة، وتجند نفسك حراً وبالغاً، تواجه بمشكلة أن تكون صالحاً.

ومثل "دي ساد" فإن "بوروز" اكتشف أنه من المستحيل أن تكون شريراً إيجابياً. ولأن هذا هو حلم كل المتمردين، فهم يودون لو أصبحوا شخصيات هائلة متمردة للظلام، مثل شيطان ميلتون، لكنهم يكشفون أنهم لا يستطيعون أن يكونوا شياطين إلا إذا كان هناك إله يتحدثونه، بكلمات أخرى لا يمكن أن تكون شيطانات دون أن تكون متدينًا، ومحاولاتك لأن تكون شريراً، تتحول إلى شيء تافه وقذر وأحياناً ساحر.

هذه الملاحظات نفسها، تنطبق على الكاتب الفرنسي جان جينيه، الذي طبعت كتيبه علناً في الستينيات، لقد حاول أن يكون متمرداً ومجرماً ومنحرفاً كبيراً، وينجح فقط في إظهار أن الجريمة والإنحراف ماهما إلا اسم آخر لعدم النضج.

هناك شيء أود قوله حول نشر كتب بوروز وجينيه علناً، فهي تجعلك تعي شيئاً لم تكن تدريكه. وأما بذاءاتهم - ويمكن قول الشيء نفسه عن عوليس، لا تناسب مزاج كل شخص. في الواقع قليل من الناس يستطيع أن يقرأ صفحات كثيرة في هذه الروايات. فهي روايات صعبة لا يهتمها الكثيرون، لذلك يمكن القول أن رواية مثل "بائعو السجاد الجائلون" تفسد الشباب أكثر بكثير من رواية "الغداء العاري".

حكاية رواية "كاندي" مختلفة تماماً. فهي مثل كل الكتب الممنوعة، طبعت أولاً في باريس عن دار أوليمبك بريس، وهي دار تضع عينها على السياح الإنجليز والأمريكيين الذين يريدون شراء كتب جنسية. ولكن حين طبعت في أمريكا أواخر الستينيات أصبحت على قمة قائمة الكتب الرائجة. هي رواية ممتعة، وعدا رواية فاني هيل، فهي أكثر الروايات التي طبعت علناً، وتحدث صراحة عن الجنس الفاضح.

تبدأ الرواية، وكأنها النسخة الأثرية من كانديد لفولتير. قصة رجل مثالي ساذج تقوده براءته للواقع في مطبات مختلفة. وكاندي فتاة أمريكية جميلة وساذجة، تعبد مدرستها في الجامعة وتراه طلاً، وهو رجل متحذلق يردد عبارات رائعة عن الجمال والحقيقة. ويتضح بعد ذلك أن هذا الأستاذ مزيف

عجوز، اهتمامه الرئيسي هو إغراء تلاميذه الأكثر جمالاً من الذكور والإناث. ولكن في هذا الوقت كانت "كاندي" قد صممت أن ترسو على شاطئ التحرية الجنسية.. ومن هنا تتشكل مادة الكتاب.

والشيء الممتع حول هذه الرواية، إنها كلها تحدث على مستوى الفارس - السخرية. أرائها المؤلفان أن تكون مضحكة وساخرة وقد نجحت في ذلك إلى حد كبير. تعالوا لنرى هذا الموقف العبثي: والدها في المستشفى - نتيجة لضربه على رأسه من أحد عشاقها - ويحاول عمها - الشقيق التوأم لأبيها - أن يمارس معها الجنس على أرضية الغرفة في المستشفى. فتصرخ، وتتجمع الممرضات على صراخها، في القوضى التي تبعت ذلك، يقع والدها على الأرض ويهرب من المستشفى، الشقيق التوأم، يفاجأ بالممرضات، فيلقي بنفسه على السرير. ولا أحد يكشف الخطأ لعدة أيام، حتى تأتي زوجة أخيه وتراه بدون سرواله، فتدرك على الفور أنه ليس زوجها، من عضو فيه تألفه أكثر من وجهه.

هذا النوع من الروايات كتبه "ثورن سميث" منذ نصف قرن، في كتب مثل "سروال القس" و"الأشباح البشوشة"، لكن سميث لم يستطع أن يكون محددًا، فقد ترك الكثير للمخيلة القارئ. أما رواية "كاندي" فهي لا تترك شيئاً للمخيلة في صراحتها الجنسية.

تنتهي الرواية بموقف عبثي مقصود، تذهب "كاندي" إلى التبت لتصبح راهبة بوذية، وهبت عاصفة، فالتجأت مع راهب عجوز قنذر إلى مأوى في المبدد. سقطت صاعقة على المبدد فشقت السقف وأوقعت ثنائلاً كبيراً لبودا، ضغط كاندي والراهب معاً. وانتهى الأمر بممارستهما الجنس، وكانت قد شُبكت مع الراهب بأنف بودا الضخم المغروس في مؤخرتها. وعند هذه النقطة عرفت في الراهب أباهما المفقود، وتنتهي الرواية.

الشيء العجيب في كل هذه الأحداث، أن كاندي كرواية لا تبدو ولا تتظاهر بأنها جادة. كتابة جنسية خفيفة كتبت للسياح، وهي ليست رديئة كما أنها ليست جيدة. ولكن فريفاً من النقاد المرموقين وصفوها بأنها كوميديا رائعة، وصرّح أحدهم "لا بد أن تكون في كل بيت أمريكي"، وقالت مجلة لايف "إن كاندي رد فعل صحي على الجنس التعس في الولايات المتحدة". وهي تذكرنا بأن من المفروض أن يكون الجنس متعة ولهواً.

كان هذا الرأي سيثقل غضب كاتب مثل د.هـ. لورنس، وأعتقد أنه سيكون على حق. فالقول بأن الجنس متعة ولهو كقولنا أن الحرب هي أحد الألعاب الصحية. إنه رد فعل لعقول تافهة تماماً، يسعلها أن ترى تفاهتها تُعرض بوضوح.

برواية "كاندي" وصلت معركة الأدب الجنسي المكشوف إلى اكتمال دائرتها.

الكتاب الذين اتهموا باستغلال الجنس في رواياتهم في القرن التاسع عشر، دافعوا عن أنفسهم بالقول إن ذلك كان ضرورياً لأهدافهم الجادة، والشيء نفسه ينطبق على "الليدي تشاترلي"

"عوليس"، ونتيجة لأن جويس ولورنس قد كسبا المعركة، فإن كتب بوروز وجينيه تُطبع علناً الآن. كذلك يمكن الدفاع عن مذكرات فرانك هاريس على أساس أنها وثيقة تاريخية مهمة، حتى "فاني هل" يمكن أن يقال عنها الشيء نفسه.

لكن رواية كاندي ليس فيها مظهر من مظاهر الجدية، كما أنها بلا قيمة تاريخية. تحدثت عنها المقالات النقدية بالقول أنها رواية مبهرة تحمل هجاء مريباً للمجتمع. لكن هذا ليس حقيقياً، فلا توجد سخرية ولا هجاء بعد الفصل الأول، إنها ببساطة رواية كوميدية مطعمة بالجنس، وقيمتها الأدبية ليست أعلى من قيمة "جيم المحظوظ" أو سروال القس.

هذه هي القضية الحقيقية ضد رواية كاندي، فالعالم المعاصر تافه بما فيه الكفاية ولا تنقصه تافهة أخرى كهذه.

إن الشيء المشترك الوحيد بين جويس وفوكنر ولورنس، هو كراهيتهم لهذه الضحالة، إنهم يريدون أن تؤخذ الحياة بجدية أكبر، يريدون أدباً بمعنى حقيقي من القيم.

إن روايات كعوليس وليدي تشارلزي والمعيد هي في النهاية، روايات غير مشبعة أو مقنعة لأنها سلبية أكثر من اللازم، إنها أعمال متمردة لا أكثر، وهناك بالتأكيد عنصر مرضي فيها جميعاً، لكن الزعم بأن "كاندي" هي رد فعل صحي لهذا العنصر المرضي، هو أكثر الأشياء التي تسبب المرض.

"كاندي" رواية مسلية، وقمامة تافهة. حاول قراءتها في جلسة واحدة، كما فعلت أنا في الطائرة، ستجد أن محاولتك تشبه تجهيز وجبة جيدة من بياض البيض والسكر فقط. وتأثيرها النهائي عليك هو إحساس مزعج بالغبثان العقلي. طبعاً لا يوجد ضرر كبير من نشر الكتاب، لكن نشره مازال علامة على التشوش الأخلاقي البائس وليس دليلاً على التحرر أو الحرية.

وهذا يلخص الموقف اليوم: التشوش الأخلاقي. ويزداد هذا التشوش بالكلاشيهات الفارغة حول الحرية والشجاعة الأخلاقية. المدافعون عن حرية الإبداع يتحدثون كما لو أن المتطهرين والمنافقين يمنعون إبداع الأعمال العظيمة.

في الواقع، إن عوليس هي الرواية الوحيدة الأصيلة التي تقف على حدود العمل العظيم، التي استخدمت البذاءة لتزيد من تأثيرها. "ليدي تشارلزي" أحد أفقر أعمال د.ه. لورنس، والعالم لن يكون أكثر فقراً لو لم تُطبع رواية فوكنر "المعبد"، بل من الممكن الاستغناء عن الجنس في كل أعمال فوكنر - من بايلون إلى ضوء في أغسطس، دون أن تتأثر قيمته كروائي على الإطلاق.

حكاية حرية الإبداع وصلت إلى مرحلة العبث.

عند محاكمة رواية أرسكين كالدويل أرض الله الصغيرة، وهي عمل فقير نُثر عليه الجنس من أجل أن يبيع، وحكمت المحكمة ببراءة الكتاب، أصبح بالطبع أحد الكتب الرائجة وحقق أعلى المبيعات. والحديث عن حرية الإبداع وعلاقتها بهذه الرواية هو تقليص للقضية إلى لاشيء.

هناك شيء واحد أود أن أوضحه تماماً، فأنا لا أقترح تشديداً وقيوداً على وجود الجنس في الأدب، لكنني أشير فقط إلى أن النقاش حول الأدب الجنسي - مع أوضد - أصبح كبرج بابل، فكلا الجانبين يتكلمان كلاماً فارغاً.

يتظاهر الذين يعارضون القيود، بأنها حملة أخلاقية كبيرة ضد الحرية، وأن من يعارضهم لابد أن يكون فاشياً أو متعصباً دينياً. يبدو أنهم يعتقدون أنها ميزة إيجابية ألا يكون هناك مستوى ما لى عمل. إن هذا علامة على عدم قدرتنا التامة على التفكير السليم المعقول ولو بحده الأدنى.

لم يزعم أحد أن حرية البلاد الأخلاقية على وشك الانهيار لأن الخمر والسجائر لا تباع في مقاصف المدارس. فنحن ندرک فيما يخص الصغار، بأن قدرتهم على الحرية محدودة بعدم نضجهم ونقص كفايتهم الذاتية، ونحن لذلك مضطرون لوضع بعض الموانع والكوابح.

في البلاد الإسكندنافية، ولسبب ما، فإن المزاج القومي يتجه بإسراف نحو الخمر والقيادة السريعة، فما الذي حدث؟.

الخمر أسعارها مرتفعة جداً، وقيادة السيارات بسرعة عقوبتها شديدة جداً، ولا أحد يزعم أن في ذلك تهديداً خطيراً للحرية الفردية.

بإختصار نطالب بمعاملة الأدب الجنسي كما يعامل الإسكندنافيون الكحول، كبضاعة غالية جداً. لن يسبب أي ضرر، سن قانون بإباحة طباعة كتب مثل "كاندي أو" "مائة وعشرون يوماً في سدوم" على أن تكون غالية الثمن.

سيضع ذلك أسس رقابة مؤثرة، دون إضاعة الأنفاس واختلاط الأفكار. ومن يُرد قراءة هذه الكتب، فليشتريها أو يقرؤها في المكتبة، لكن العقبة الحقيقية التي وضعناها ستعمل ألياً كمرشح، كفلتز.

Handwritten signature and notes at the bottom of the page.

الفصل السادس

الجنس والمستقبل

ما كتبه عن الأدب الجنسي، ينطبق أيضاً على موضوع الحرية الجنسية، فنحن نعيش في عصر تتزايد فيه الحرية الجنسية، ومن الواضح أنه ستأتي فترة تكون فيها الفتيات العذراوات عند الزواج قليلات جداً.

ومن العبث أن نسأل إلى أين يَقودنا كل ذلك؟ مع أن السؤال يبدو معقولاً تماماً. ولكي تفهم السبب، نَمعن في السؤال التالي: ما الفرق بين الرجل الذي يعرف كل شيء عن أنواع النبيذ وبين السكير أو مدمن الخمر؟.

الإجابة واضحة: الرجل المهتم حقيقة بالنيبذ يستحلم ذكائه وتذوقه ليستمتع به حتى النهاية. بينما السكير يريد أن يدمر ذكائه، وبعد كأسه العاشرة لا يعرف إذا كان ما يشربه نيبذاً أو بيرة أو حناً.

الشئ نفسه يمكن قوله حول الحرية الجنسية، كل شئ يعتمد على شباب المستقبل. قد يصبحون سكري جنس، وهكذا يدمرون جزءاً هاماً من أنفسهم، أو يتعلمون استخدام العقل والذكاء في الجنس، وفي هذه الحالة فإن الحرية المتزايدة ستكون مفيدة للجميع.

إذا أراد رجل أن يصبح خبيراً في الأنبذة، فهو يبدأ بتعلم شئ ما عن النيبذ، أين ينمو ويُعصر وكيف يُصنع، وما الفرق المتوقع بين نيبذ بورجاندي أو نيبذ بوردو، وإذا لم يعان من أحل تعلم هذه الأشياء، فلن يستطيع أن يعرف الفرق بين النوع الجيد من الخمر أو النوع الرديء.

والشئ نفسه ينطبق على الجنس. إن الفعل الجنسي نفسه سهل جداً ورتيب كفتح زجاجة نيبذ وشربها، ولا يمكن أن يكون فيه أبعد من ذلك، وهذا هو السبب في أن معظم الأدب الجنسي ممل ومضجر.

إن الاعتراض على كتاب "كاندي"، كان بسبب أنه يجعل الجنس يبدو بسيطاً وسهلاً مما يجعله رخيصاً. لكن حين ننظر إليه عن قرب أكثر، ندرك أنه موضوع يحتاج لحياة كاملة حتى نفهمه.

اسمحوا لي أن أقدم مثلاً لهذا التعقيد... في رواية "كاندي" لم تفقد البطلة عذريتها بالفعل حتى الصفحات الأخيرة من الكتاب. لقد اقتربت في الصفحات والأحداث السابقة، من فقدان هذه العذرية، لكن ذلك لم يحدث. وأول وصف للممارسة الجنسية الفعلية لم يحدث إلا في اللحظة الأخيرة من الكتاب. والسبب واضح جداً. فالمؤلفان أرادا أن يحشدا توقعات القراء لهذه اللحظة، والمشهد الفعلي للعملية الجنسية مسروق تماماً من الكاتب الإيطالي بوكاتشيو، راهب يتظاهر بتعليم الفتاة السيطرة على الحواس، ويخبرها بأنه بالرغم مما يبدو وكأنه يمارس الجنس معها، إلا أنه يعلمها النظام الروحي. وبما أن الكتاب كان يحتشد للوصول إلى هذه النقطة، فمن المنطقي أن تكون هي ذروة العمل، مع أنها ليست كذلك. وإذا قرأت الكتاب، ستعرف لماذا ترك المؤلفان هذا الموضوع للنهاية.. لكي يجعل القارئ يتساءل.. وماذا الآن؟.

وهذا يلقي ضوءاً كبيراً على الأسرار الأساسية للجنس عند البشر. حين يستثار كلب بنسب الرائحة التي تفرزها الأنثى، فإن حياته في تلك اللحظة تتركز على فعل الجنس. وينتهي الأمر في عادة دقائق وينهب كل منهما إلى سبيله. ذلك كل ما في الأمر. وحتى لو كان الكلب في ذكاء الإنسان، فسيظل غير قادر على فهم كتاب مثل كاندي.. لماذا؟.

ماذا يحدث حين تغني في حمامك ويرتفع صوتك بنغمة عالية، هل تجهد نفسك بالاستمرار، أو تخفض صوتك وتغني بنغمة منخفضة؟. أو إذا كنت تدير شريطاً عليه موسيقى ناعمة، وموسيقى ذات نغمات عالية مزعجة، فستجد نفسك تعدّل مفتاح الصوت عند هذه النغمات العالية، وهذا يعتمد

على قوة جهازك وحجم السماعات. إذا كانت السماعات كبيرة فستتحمل الذرات المزعجة دون صعوبة، أما إذا كانت صغيرة، فيجب عليك خفض الصوت لأن الموسيقى ستكون مشوشة في الأجزاء عالية النغمات.

لسوء الحظ أن النظام الجنسي البشري لديه سماعات صغيرة، وحين تصل الإثارة الجنسية درجة معينة، فإنها آلياً تهبط ثانية، وهذا يفسر بوضوح شديد كيف تجنبت الفتاة في رواية هوبكنز الإغتصاب، حين أُلقت الأغطية جانباً وأظهرت نفسها عارية تماماً، لقد فاجأت الرجل، فتشوشت رغبته الجنسية وتلاشت. وهذا يوضح أيضاً لماذا كان مشهد الفعل الجنسي في "كاندي" ليس هو ذورة الكتاب. وهذا هو السبب في أن كثيراً من الناس يجد الفعل الجنسي غريباً للأمال إذا قورن بالمقدمات قبل الدخول في الممارسة.

بالطبع هناك أسباب عديدة لهذا، أهمها أن البشر كسالى ولا يطورون قواهم الشعورية. فمعظمنا يرى في الحياة إندفاعاً جنونياً متواصلاً. كان شعراء القرن التاسع عشر - وردفورث وكييتس وآخرون - يرون ضرورة العودة إلى الطبيعة، فالهدوء أو العزلة يسمح لهم بتطوير قواهم الشعورية ثانية، ويخفف عنهم، ويتركهم في حالة من الراحة والإدراك كان لا يمكن أن يشعروا بها وسط المدن. هذا ما أحسه لورنس حول الجنس، هناك الكثير من الجنس في الحياة الحديثة، ولكنه في معظمه جنس ضحل سطحي، جنس يتعلق بالأعصاب.

وهذا مانعنا حين نقول عن مارلين مونرو أو بريجيت باردو أو صوفيا لورين، إنهن رموز جنسية، بمعنى أنهن رمز للمتعة الجنسية السريعة السهلة. ماترمر إليه مارلين مونرو يمكن رؤيته في اللقطة الساكنة من فيلم "هرشة السنة السابعة"، وهي تقف وتنتورتها تطير حول وسطها. هذا هو الجنس في شكله الخام، رغبة محضة، يوقظ رغبة الذكر، ليمسكها ويمتلئها في اللحظة، وحين ينتهي الفعل، لا يتبقى شيء يُعمل أو يُقال. وهذا ما اعترض عليه لورنس، شعر بأن هذا إضاعة تامة للدافع الجنسي، وهو المعادل لصبه في مصرف، أو مثل سكير يتجرع بعض النبيذ النادر لهدف وحيد هو أن يسكر لدرجة اللاوعي بأسرع وقت. وهذا ما أصبح الجنس يعنيه في العالم الحديث، وهذا ما نشعر به حين نقرأ فرانك هاريس أو هنري ميلر أو كاندي أو مشاهد الجنس في روايات جيمس بوند. إن استشهادي بلورنس لا يعني أنني اعتبره نوعاً من المخلص الجنسي، فأنا أجد رواياته، تقريباً، لا يمكن قراءتها، لكنني أعتقد أننا يمكن أن نتعلم منه الكثير. يقول في إحدى قصائده:

مالم تستطع جميع النساء أن تعطيه لك

امرأة واحدة تستطيعه

ليست هذه مجرد موعظة في الولاء والإخلاص، وأشك كثيراً أن لورنس كان مهتماً بالإخلاص، لكن يستحق أن نأخذ تجربته في الاعتبار في هذا الموضوع. كان لورنس ابن عامل في مناجم الفحم في

نوتنجهام، وأحد أفراد أسرة كبيرة، كان طفلاً مريضاً، وحين أصبح مدرساً ساءت صحته أكثر. ثم قابل زوجة أحد زملائه - فريدا ويلكس ابنة بارون ألماني - وثبت أن هذا اللقاء كان نقطة تحول في حياته. حين تركت زوجها وأطفالها لتعيش مع لورنس، كانت إحدى رواياته قد قبلت للنشر، فاستطاع أن يستغنى عن وظيفته كمدرس. وهكذا أصبحت "فريدا" تقدم للورنس أكثر من شريكة جنسية. هذه العلاقة مع الارستقراطية، أعطته إحساساً معيناً بأن يترك حياته السابقة وراءه. (اعتاد أن يكتب لأصدقائه على ورق كتابة متوج، مع ملاحظة تقول: زوجتي ابنة بارون ألماني). تتفق معظم آراء من عرفوا فريدا بأنها شديدة الجاذبية الجنسية، بل إن أحد الكتاب نمادى ووصفها بأنها "إلهة الجنس"، وهكذا فمن وجهة النظر الجنسية وحدها فإن فوز لورنس بها مهم جداً (حيث أن تجربته الجنسية قبلها كانت محدودة جداً). يضاف إلى ذلك عناصر أخرى، درجتها الاجتماعية، هجرانها لزوجها وأطفالها، ولذا فقد أصبحت تمثل له شيئاً ما أعمق من الجنس، فقد قدمت له النجاح وحققت أحلام يقظته. وقد سجل "هنري سافيج" أحد أصدقاء لورنس، التحول الكامل الذي حدث له فيما بين ١٩١١-١٩١٤، من كونه شخصاً خجولاً هادئاً، إلى شخص صاحب رسالة، متدين لا يتحمل أن يخالفه أو يكذبه أحد.

صحيح أن المرأة دائماً تقدم النجاح للرجل، وهذا هو مادفع كازانوف وهاريس للإستمرار في محاولة امتلاك النساء واحدة تلو الأخرى. لكن المرأة التي تعطي نفسها للرجل ببساطة وبصفة عارضة، فإنها تقدم القليل له، خاصة إذا كانت معتادة على ذلك. وهكذا لا يمكن القول أن إمتلاك امرأة يقدم النجاح للرجل. السؤال المهم هو: ما مقدار هذا النجاح؟ وهذا هو المعنى الحقيقي وراء الكلمات: مالم يستطع إعطائه كل الناس، فإن امرأة واحدة تستطيعه.

إن لورنس يعني أن مائة امرأة يمكنهن إعطاء الرجل شيئاً ما، لكن ذلك الشيء لا يغير الرجل، إنه لا يرفعه إلى مستوى جديد من الإيمان بنفسه، إن امتلاك لورنس لفريدا رفعه بالفعل إلى مستوى جديد من الإيمان بالنفس، وهذا بلاشك أحد الأسباب الرئيسية في شعوره بأن الجنس أكثر من مجرد الإمتلاك الوقتي لجسد الأنثى. وهذا ما أراد التعبير عنه في عشيق الليدي تشاترلي، حين قدمت تشاترلي للحارس ماقدمته فريدا له.

ونأتي الآن إلى مسألة أكثر غرابة ... كان الناقد ج. ويلسون نايت أول من أشار إلى أن بعض روايات لورنس تتضمن علاقات جنسية منحرفة. وعلى وجه الخصوص ميللوز في عشيق الليدي تشاترلي، وبركن في نساء عاشقات، فهما يمارسان اللواط في زوجتيهما المحترمتين، والأكثر طرافة أن لورنس يرى بوضوح أن هذا أمر طبيعي. بل هو أعمق من الممارسة الجنسية العادية. (تناولت هذا الموضوع بتفصيل أكثر في كتابي أصول الدافع الجنسي).

والسؤال الذي يثور سؤال طريف.. حاولت أن أوضح في فصل سابق أن دافع كازانوفيا الجنسي ليس بعيداً عن معنى الإنحراف، إنه في الواقع يقع في منتصف الطريق إلى السادية. في هذه الحالة، فإن موقف لورنس من الجنس لابد أن يوضح الميل المعاكس - أي جنس طبيعي أعمق من المؤلف - إذن كيف نفسر هذا الدفاع عن اللواط في أعمال لورنس؟.

أحد التفسيرات أنه كان لديه ميول جنسية شاذة، كما أوضح هو بنفسه في رسالة إلى هنري سافيج أعرب فيها عن إعجابه بالجنس الذكري. (في الرسائل الكاملة يقول لورنس "أود لو أعرف لماذا يميل إلى الشذوذ كل رجل يقترب من العظمة.. ويجب الجنس الذكري أفضل من الجنس الأنثوي؟). هذه الميول الجنسية الشاذة لا تعني الرغبة العادية للتورط العاطفي مع الرجال. يتضح من كتب لورنس أنه يشعر بالجنس كامتلاك كامل للمرأة، وأن هذا الإمتلاك الكامل لن يكون كاملاً إلا بممارسة اللواط معها.

ومرة أخرى نواجه بالنتيجة الغريبة أن الإنحراف هو في طبيعة الجنس نفسه. وإذا كان الجنس سطحياً كما في حالة كازانوفيا - رغبة محضة للفوز بجنس المرأة - فمن السهل أن ينزلق إلى حدود السادية، لأن المرأة آنذاك لا تبدو كإنسان ولكن كشيء يعطي المتعة.

مع لورنس، مثل هذا الأمر مستحيل، لأن فكرته الأساسية عن الإشباع أن تكون هناك علاقة شخصية عميقة وحميمة بين الرجل والمرأة، ومع ذلك فإن لورنس يرى في الجنس معنى الحرب، وهكذا تصبح اللواط فعلاً جديداً للفوز تغوص بالمرء أعمق من الجنس العادي.

ولابد أن أوضح بالضبط مأود قوله. إذا كنت قريباً جداً من موضوع معقد، فأنت تميل بشكل آلي إلى تبسيطه. هناك قصة "الراماكريشنا" عن مجموعة من العميان وقفوا حول فيل، أحدهم أمسك بخراطومه وقال: إنه يشبه التنين، وأمسك الثاني بساقه وقال: إنه يشبه جذع الشجرة، وثالث أمسك بذنبه وقال: إنه يشبه قطعة الحبل، ورابع وقف تحت بطنه وقال: كلكم على خطأ.. إنه يشبه حقيبة جلدية كبيرة.

مثل من علم الفلك قد يجعل فكرتي أوضح. كل الفلكيين القدماء قد افترضوا أن الشمس تدور حول الأرض، وكان عليهم أن يفسروا حركة النجوم بفهم النظام الأكثر تعقيداً، ولم يستطيعوا، حتى جاء شخص يقول أن الأرض والكواكب الأخرى تدور حول الشمس، فأصبح علم الفلك سهلاً والتفسير واضحاً.

ليس هناك موضوع أسوأ فهمه مثل الجنس، قصة العميان والفيل تشبه وجهات النظر حول الجنس.

اعتقد الإغريق القدامى من عبدة ديونسيوس أنه الطريق الموصلة إلى الله. القديس بولس اعتقد أنه الخطيئة الأولى التي أدين بها كل البشر، وفرويد اعتقد أنه الدافع الكبير الغامض وراء كل النشاط البشري، وأن جميع الاضطرابات العقلية مرجعها للإحباط الجنسي. د. هـ. لورنس، اقترح من وجهة نظر اليونانيين القدماء، ورأى فيه طريقاً للوصول إلى دوافع الخلق البدائية في الكون.

والمتنصف المتوسط العادي في عصرنا يعتقد أن هناك ضجة كثيرة قائمة حول الجنس، بينما هو نوع من المتعة واللهو، وكله أمر طبيعي، ويجب أن نتوقف عن الحديث عنه ونكتفي بممارسته.

ولكن، أكثر الآراء انتشاراً هو الرأي الذي يمكن تسميته بوجهة النظر الساذجة. وحسب وجهة النظر هذه، فإن الجنس شيء لا يجب أن نناقشه كثيراً، ويجب أن يقتصر على غرفة النوم، وهدفه الأساسي أن ينتج أطفالاً أصحاء، ولكن في قرنا العشرين الفاسد نسي الناس هذا الأمر، وسمعتنا كثيراً عن انحرافات جنسية متعددة، وعن غير المتزوجين الذين يعاملون الجنس كأمر عرضي طاريء.

هناك حقيقة في كل رأي من هذه الآراء، بال ضبط كما أن هناك حقيقة في كل فكرة عن الفيل. لكن الرأي الأخير هو أكثر الآراء زيفاً وأعظمها سطحية، فهو يرى في الجنس موضوعاً محدداً واضحاً ولطيفاً.

وذلك يذكرني بفقرة في مسرحية شو ميحور باربارا، حين يتحدث ملك السلاح إلى ابنه عن الوظيفة التي يعتزم ممارستها:

- هل هناك شيء تعرفه أو تهتم به؟

- أعرف الفرق بين الصواب والخطأ.

- ماذا؟ لا مقدرة على العمل، ولا معرفة بالقانون، ولا ميول فنية، ولا رغبة في الفلسفة، فقط معرفة بسيطة للسّر الذي أتعب كل الفلاسفة وحيّر المحامين، وأربك رجال الأعمال وأفسد معظم الفنانين.. سر الصواب والخطأ. أيها الرجل العبقري أنت سيد الأسياذ. إله.. وفي الرابعة والعشرين أيضاً. وذلك ينطبق على المدرسة الساذجة، التي لا ترى في الجنس أية صعوبة. أسأل سؤالاً بسيطاً مثل: ماهو الانحراف الجنسي؟ تجد نفسك في متاهة من التناقض النفسي.

وبصراحة الجنس لا يمكن شرحه بطريقة بسيطة وواضحة، وحين نناقشه مطولاً كما فعلنا، نخرج بنظريتين لا ثالث لهما: - الأولى: أن الجنس وهم كبير كأغنية السارينات في الأساطير اليونانية، يجبر الرجال كالفراس إلى لهب شمعة، ولكن أيضاً شبيه بالفريزة التي تدفع الفراش إلى النار، فهو أعمى تماماً. وبالنسبة للهدف، فليس لديه أي أهداف أكثر من أهداف هطول المطر أو الرياح تهز الأشجار. الثانية: بالرغم من أن البشر قد لا يعرفون لماذا كل هذا، فإن الدافع الجنسي يعرف ما يريد. فهو يعامل البشر كالجناد على رقعة الشطرنج، لكن للعبة هدف لو كان لدينا الذكاء لفهمه.

أولاً: نحن نوافق على أن الحياة لا معنى لها، وأن البشر يبدلون أقصى ما في وسعهم، في موقف سخيف جميل الذي هو الحياة. ثانياً: وهو ما أفضله، أن البشر ملامون لأنهم ذرو عقول تافهة وغبية.

كل إنسان عاش على هذه الأرض، كان عليه أن يواجه المشاكل نفسها. الحياة لم تكن سهلة قط، سواء للأغنياء أو الفقراء، للأذكاء أو الأغبياء، للموهوبين أو غير الموهوبين، وكل فرد أغراه التبسيط الشديد فاعتقد أن الحياة ستكون رائعة لو تحققت بعض الشروط البسيطة.

د. بالعيد صا

فالفقير يعتقد أنه لو أصبح غنياً لحلت كل المشاكل، ولكن الرجل الغني يعرف أفضل منه أن ذلك ليس صحيحاً. من الأفضل طبعاً أن تكون غنياً، لكن ذلك لا يحل كل شيء.

هناك شيء آخر خطأ في الحياة البشرية، شيء أعمق من الشروط المادية.

المسيحيون الأوائل أدركوا ذلك، واخترعوا لفظ "الخطيئة الأولى أو الأصلية" لكل ماهو خطأ. لكن هذه الفكرة جلبت نفعاً أقل وضراً أكثر.

يمكنني أن أقدم هنا تفسيري للموقف، معترفاً بأنني قد أكون مخطئاً كأني فرد آخر. لكنه تفسير جاء نتيجة لملاحظاتي وقراءاتي عن الحياة البشرية.

يبدو لي أن الجنس البشري ينقسم إلى نوعين من البشر: اللامتمنون، والملتزمون.

معظم الناس يأخذون الحياة كأمر مفروغ منه، وهم سلبيون. صحيح أنهم يكافحون ليظلوا أحياء، لكن هدفهم هو هدف مادي بحت. لا يتساءلون قط عن معنى الحياة وحتى لو تساءلوا فهم يقبلون الإجابات الجاهزة سواء التي في الأديان أو المذاهب كالشيوعية مثلاً. وهم يميلون إلى اعتبار الوجود قضية مسلماً بها، ويشعرون أن الحياة بلا معنى.

لو كان هؤلاء هم النوع التوحيد من البشر لما كانت هناك حضارة بشرية، ولكانت حياتنا ساكنة مثل حياة النمل أو النحل. نحن ندين بحضارتنا إلى النوع الآخر من البشر، اللامتمنين، الذين لم يأخذوا الحياة قضية مسلماً بها، ولديهم الرغبة لمعرفة معنى الحياة، ويرون أن رجال الدين والسياسيين يعرفون القليل مثلهم تماماً، وعليهم أن يجدوا الإجابة وحنهم.

لو كان الملتزم يشبه رجلاً يمتلك سيارة ويعرف كيف يقودها، فاللامتلمي هو الرجل الذي يريد أن يعرف ماتحت غطاء هذه السيارة وكيف تعمل. لديه تعطش لمعرفة أكثر، هو لا يحب أن يشعر أنه مجرد عبد سلبي لكون لا يفهمه. يريد أن يكون مسئولاً عن حياته، يريد أن يفهم، لا يستطيع أن يدع حياته تسير به كراكب في حافلة، يريد معرفة أعمق ومعنى أعمق بالهدف.

وهو يرى أن نموذج "العبد" ضروري للعالم، كالعمال الذين ينهبون إلى المصنع كل يوم ولا يأملون بأكثر من أحورهم، ومعاش تقاعدي بعد الستين. هذا النوع من الحياة يبدو له شكلاً من الموت الحي، لكنها توجد من أجل أناس مثله - شعراء وفلاسفة وعلماء وكتاب - للناس الذين لا يرضون الحياة بشكل سلبي، وتستحوذ عليه فكرة واحدة: هناك معنى للحياة، لو استطعت فقط أن اكتشفه.

لا يمكن القبول بأن تكون الحياة معركة دفاعية فقط لإبعاد الذئب عن باب البيت. كل فكر أو شاعر عاش على الأرض يشعر بأنها شيء آخر غير ذلك.

إذا نظرت من نافذة، فانت تشعر أن العالم لا يهتم، سواء وُجدت أو لم توجد، فالحياة تسير لا تهتم بأحد، مثل الرياح. وانظر إلى كلبك، إنه يأخذها قضية مسلمة، فالحياة لا تحمل معنى أكثر من مصمصمة عظمة أو مطاردة كرة. وتلك هي النقطة. الحيوانات ليس لديها معنى لهذا الهدف وراء الوجود. حتى بالنسبة للإنسان، فالدين والشعر والعلم عمرها لا يتجاوز بضعة آلاف فقط من السنين، بينما الكلاب وُجدت قبل وجود الإنسان بعشرين مليون سنة. فالأمر كله حديث تماماً.

ولقد وصل الإنسان إلى وضعه الحالي بتتبعه هذه الومضات من المعنى، بإتباعه غريزته التي تخبره أن هناك في الحياة ماهو أكثر مما تراه عيناه. ولقد تتبع هذا الجنس لعدة آلاف من السنين، رافضاً أن يصدق وجهة النظر العامة القائلة أن الحياة لا تهتم سواء وُجد أولم يوجد، وأن كل شيء يسير بلا هدف.

برغم أنني قلت أن هناك نوعين من البشر: المنتمي واللامنتمي، فالحقيقة أن كل واحد منا يحتوي شيئاً من الإثنين. فلا أحد منتم تماماً أو لا منتم تماماً. كل فرد له حرية الاختيار لأن يكون هذا أو ذاك، وكل فرد له لحظات لإتيمائه حين يبدو واضحاً أن الحياة يمكن أن تكون أكثر جمالاً وإثارة إذا عرفنا كيف نغيرها. لسوء الحظ، أن على الفرد أن يمارس العمل المرهق للمعيشة اليومية، ويتعامل مع مشاكلها التي تحتاج إلى انتباه كبير، ولا بد أن يتمتع بقوى عقلية ثرية جداً ليوفر كثيراً من طاقته إذا أراد تتبع سؤال مثل ماذا تعني الحياة؟

وحين نرى حيوات هؤلاء الرجال الذي أرادوا فهم معنى الحياة، فإننا نصاب بيبأس أكثر. فمعظمهم قد انتهى إلى الفشل، وكثيرون قُتلوا أو ماتوا مجانين أو انتحروا.

هل يلوم أحد بعد ذلك الإنسان إذا أراد أن يكون منتمياً طوال عمره؟!

إن حياتنا الجنسية هي صورة مصغرة لهذه المعركة.

صحيح أن قليلاً من البشر ووجهوا بالاختيار، ولكن كل بالغ بلا استثناء، يعرف معنى الشعور بالإثارة الجنسية بحيث يبدو له أن لاشيء يهم غيرها، وكل فرد عرف الإحساس بالصحة أو التخلص من الوهم الذي يتبع ذلك.

قد يحل المشكلة برمتها لو استطعنا القول: الجنس هو مجرد شهوة أخرى، مثل الحاجة إلى الطعام والشراب، ولكن من الواضح أن ذلك لا يحل المشكلة. فقليل من البشر هم الذين تجرفه العواطف ويتملكهم الحماس لمنظر وجبة جيدة، تعطيهام الإحساس بالإشباع بالدرجة نفسها كالجنس.

فالشباب الذي يشعر للمرة الأولى بأن الفتاة التي يحبها هي أيضاً تحبه، يعرف أن هذه الشهية لا تشبه إطلاقاً الحاجة إلى الطعام أو الشراب، إنها على مستوى أعلى. إنها تشبه الدافع الذي يجعل الشاعر يحب الطبيعة أو العالم يحب المعرفة.

ويتضح هذا أكثر حين ننظر إلى الانحراف الجنسي. فالإنحراف الجنسي قد انتشر للسبب نفسه الذي يدفع الإنسان لتأليف الموسيقى أو إقامة تليسكوبات ضخمة، إنه الدافع للغوص أعمق وأبعد، الحاجة لكثافة أكبر في التجربة.

الإنحراف الجنسي قد يكون مربعاً ومقرفاً، لكنه لن يوجد لو كان الإنسان مجرد حيوان، لأن الحيوانات لا تمتلك هذه الغريزة الغريبة لأن تغوص أعمق وأبعد.

الإنحراف الجنسي كشبهة الإنسان للمعرفة، لكنه ينحدر بكثافة إلى مستوى منخفض بسبب سوء الفهم والجبين.

إنه دليل يحتوي على تناقض ظاهري بأن الحياة لا معنى لها، وأن الإنسان في أصله نبيل.

قصة موباسان التي ذكرتها "المجهول" تشير إلى النتيجة نفسها. شهية الرجل الجنسية ليست كشهية للطعام، إنها أقرب إلى الدافع الذي يجعل الناس تكذب الشعر، فهي تعتمد على الخيال والوحي والإلهام وتلاشى كفقاعة لو نُقب هذا الخيال أو الإلهام.

ملاحظة باربوس "ليست امرأة التي أريدها، بل كل النساء" توضح الشيء نفسه. حين يكون الإنسان جائعاً، لا يقول: "ليست قطعة لحم التي أريدها. بل كل اللحوم". إن مايريه هو قطعة لحم جيدة. لكن الشهية الجنسية تميل إلى التحليق فوق النساء الحقيقيات تجاه النساء النمذجيات. فالواقعية تميل إلى تخييب أمل هذه الشهية.

لو افترضنا أن كل ذلك صحيح.. فعلى ماذا يدل؟

افترض أننا وافقنا على أن الدافع الجنسي للإنسان، ليس غريزة بسيطة لحفظ النوع، ولكن مسألة أكبر تتعلق بالخيال.. فإلى أي مدى يقودنا ذلك؟

خلال التاريخ الطويل للبشرية، فإن الإنسان قد تمزق بين دافعين: خوفه وإرادته بالفوز.

خوفه يقول له: اجث عن الأمان وتمسك بالحقائق الثابتة ولا تهتم بالأحلام.

وإرادته في المغامرة والفوز تقول له: لا تهتم بالحقائق فلا توجد حقائق ثابتة، فهي تبدو مختلفة تبعاً للزاوية التي ننظر منها، اتبع الأحلام، فهي تصبح حقائق لأولئك الأشداء الذين يؤمنون بها.

ولكن في فترة مبكرة من تاريخه، كان الإنسان عبداً للحقائق، وكان عليه أن يقضي معظم وقته في حل مشكلة بقاءه حياً. والآن لأول مرة في تاريخه، هناك إمكانية لأن يكون حراً في اختياره بين الحقائق والأحلام.

عن طريق الميكنة والآلات سنصل قريباً إلى مرحلة لا يعمل فيها الإنسان أكثر من أربع وعشرين ساعة في الأسبوع، ومعرفتنا المتزايدة في علم النفس تمكنا من جعل البشر يفهمون هذا الموقف. لا

معنى أن تكون حراً إلا إذا فهمت ماذا تعنى الحرية. وسيأتي يوم يفهم فيه معظم البشر ماهم وما يمكن أن يصبحوا عليه.

لو ألقينا نظرة على بعض الشعراء وأصحاب الرؤى في القرن التاسع عشر فسيغدو ما أقوله أكثر وضوحاً. فرجال مثل: وليم بليك وفان جوخ وشيللي، كل منهم كان لا متميماً وصاحب أحلام وأوهام. كل منهم اعتقد أن الإنسان يمكنه أن يصبح ملاكاً لو فهم نفسه. وثلاثتهم ابتلوا بمصاعب مالية طوال حياتهم، نهاية فان جوخ بالإنهيار العقلي ثم الانتحار كانت بسبب قلقه من كونه عالية على أخيه الذي كان ينفق عليه بينما هو يرسم لوحات لا يشتريها أحد.

حين ننظر إلى القرن التاسع عشر والأعمال العظيمة التي أنتجها، يبدو عبثاً أن معظم عباقرة قضا حياتهم معذيين بسبب المتاعب المالية، حتى أن بهوفن وفاجنر ونيتشه كانوا يتسائلون غالباً من أين ستأتي وجبتهم الغذائية التالية. كان النجاح بالتأكيد، سينقذ نيشته وفان جوخ من الجنون، ويمد في عمر بيتهوفن عشرين سنة أخرى، لكن المتاعب المالية هزمتهم، كما هزمت معظم الفنانين الكبار في القرن التاسع عشر.

ونأمل أن يكون مثل هذا الزمن قد ولى، إن إنجازات الإنسان العلمية ستخلصه على الأقل من هذا الحجر حول عنقه، ويمكننا أن نتخيل يوماً في المستقبل يتابع فيه اللامتمتون وأصحاب الأحلام حياتهم دون الخوف من الموت جوعاً.

ماذا يحدث حين يبدأ الإنسان يفهم بوعي مصيره؟ حين يدرك بوعي أن عمله هو أن يفهم الحياة، وأن يكتشف ما المفروض أن يفعله بها.

قد يقول معترض: ما الدليل على أن مثل هذا الوقت يقترب؟ قد يستغرق مليون سنة.

ولكن الدليل يبدو أقرب من ذلك بكثير، لقد أعددنا لمثل هذا الزمن. ويستحق هنا أن أشير إلى عالم واحد من أكثر علماء النفس نبوغاً، وهو "ابراهيم ماسلو". تدرب "ماسلو" كعالم نفس فرويدي، وفرويد بالطبع مال إلى إرجاع كل مرض عقلي إلى أسباب جنسية، وعنده لا يوجد دافع أساسي أعلى من الدافع الجنسي.

لكن حين كان "ماسلو" يجري تجاربه على القردة، لاحظ أن لديها حاجة للمعرفة من أجل المعرفة ذاتها. فقد كانت تحل ألغازاً معينة من أجل الطعام، مثلاً يوضع إصبع من الموز في صندوق بغلاف معقد الفتح، وتجاهد القردة لفتح الصندوق وتنجح، لكن حين لا يوضع إصبع الموز في الصندوق، فإن القرد يستمر بالقيام بحل لغز فتح الغطاء للمتعة وحدها. ثم كان لديه مريضة، جعلته يعيد حساباته كلها مع نظرية فرويد. كانت المريضة فتاة ذكية، مديرة مصنع آيس كريم، وكانت تلميذة واعدة في الجامعة، وكانت تأمل أن تواصل دراستها البحثية. لكن حصل ركود اقتصادي، وأصاب البطالة أفراد

عائلتها، وعُرض عليها في هذه الظروف عمل بأجر جيد في مصنع للآيس كريم. قبلته لمساعدة عائلتها، لكن أصبحت حزينة وازداد توترها حتى توقفت العادة الشهرية عندها، وبدأت تتأهبها نزعات انتحارية. وهنا ذهبت إلى "ماسلو"، وبناءً على نظرية فرويد، كان عليه أن يكتشف الخطأ في حياتها الجنسية. لكنه لم يفعل، ونصحها أن تواصل دراستها في مدرسة ليلية وقت فراغها. واحتفى مرضها بسرعة كبيرة.

هذه المريضة، ثم تجربته مع القروء، قادت ماسلو للشعور بأن الجنس ليس هو الدافع الأساسي للبشر - أو حتى الحيوانات. فالبشر لديهم حاجة ودافع مهم للمعرفة - يساوي الدافع الجنسي، بمعنى أن لديهم دافعاً للتطور والتقدم.

وما افترضه في هذا الكتاب هو خطوة تالية منطقية.

إن الدافع الجنسي نفسه ليس مجرد غريزة لحفظ النوع، إنه أكبر من ذلك بكثير، إنه جزء من دافع الشاعر لدى الإنسان، دافع التماسي، ولا يمكن فهمه إلا من خلال هذا الإلحاح بأن يصبح الإنسان شيئاً أكثر من إنسان.

فالمرض الجنسي في عصرنا، والميل المتزايد نحو الممارسات الجنسية، والعنف الجنسي، لا يمكن فهمها إلا في ضوء هذه الحاجة الغريبة في أن يصبح الإنسان أكثر من إنسان.

وهذا يفود منطقياً إلى نتيجة ... لقد بدأت بالتساؤل ماذا ستكون نتيجة هذا الميل المتزايد نحو الحرية الجنسية، وهو في ذاته سؤال لامعنى له. يمكننا فقط القول بأن المراهقين سينظرون إلى الجنس كقضية. مثلهم بها أكثر وأكثر. كما أن التجربة الجنسية ستبدأ في سن أكثر تبكيراً، بمجرد أن يقدر الجسد على الممارسة في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشر.

وسيعتبر المراهقون أن الفعل الجنسي طبيعي مثل القبلية ولا تتبعه أية عواقب.

ولا يوجد سبب لأن يقود كل هذا إلى إنهيار أخلاقي.

في النرويج مثلاً، يعتبر الجنس أمراً عادياً لمن هم تحت العشرين، ولن يرفع الوالدان حواجبهما دهشة إذا أمضت ابنتهما نهاية الأسبوع في كوخ للتزلج مع صديقها. ولم يود هذا إلى إرتفاع حاد في نسبة الأطفال غير الشرعيين، أو إلى الأمراض الجنسية أو جنوح الأحداث، ولا يوجد سبب يدعو إلى ذلك.

فالدافع وراء ذلك دافع طبيعي معقول، ولا يوجد سبب ألا يؤخذ هذا الموضوع كأمر مفروغ منه في بلاد الغرب الأخرى.

لكن كل هذا فقط إجابة عن نصف السؤال. فالحرية الجنسية في حد ذاتها ليست جيدة ولا رديئة. إنها تعتمد تماماً على موقف الناس الذين تخصهم. هل يريد الناس الحرية الجنسية من أجل أسباب سلبية أو إيجابية؟ هل يحاولون فقط إسقاط سلطة الوالدين؟ أو أنهم يريدون أن ينظر إليهم المجتمع كرجال

بالغين - أتكلّم عن المراهقين والشباب - يتحملون المسؤولية وعليهم أن يختاروا؟ يقولون إن هذا بالفعل
ما نحتاجه. الإدراك بأننا أحرار في أن نختار. أليست هذه هي المشكلة الحقيقية للمراهق والشاب اليوم.

وأنا أكتب هذا الكتاب وقعت حادثة: إذ وضع مراهق شيئاً ما على خط السكة الحديد، فخرج
القطار عن الخط ومات السائق. وقام بعض المراهقين قبل عيد القيامة، بشغب في حديقة عامة، فدمروا
كل شيء، المقاعد والأشجار والزهور.. الخ.

والسؤال: لماذا يقوم شباب في سن الخامسة عشر بالتدمير بهذا الشكل؟ والجواب: بسبب الحرية
المتزايدة. التمرد يبدأ الآن في سن مبكرة، الصغار يمارسون احتجاجهم ضد سلطة الآباء وكل عالم
الكبار. منذ أربعين سنة كانوا يخافون القيام بذلك برغم رغبتهم، لكن الحرية المتزايدة في المجتمع
دمرت الخوف دون أن تدمر التمرد. فالحرية المتزايدة لها جانبها السيء أيضاً.

الحرية مدمرة إذا لم تصاحبها المعرفة والشعور بالمسؤولية.

واعتقد أن التعلم بالتفكير بالجنس، بالشكل الذي أوضحته، يمكن أن يعلم الناس معنى حريتهم.

وقبل أن أنهى هذا الكتاب، سأحاول أن أوضح تماماً هذه النقطة:

هناك حالة تحول مضاد ذكرها "وليم جيمس" في كتابه "أنواع من الخبرة الدينية" عن شاب أنفق
ثروة كبيرة خلال سنتين أو ثلاث، ووجد نفسه معدماً محالي الوفاض. وذات يوم قرر الإنتحار. وذهب
إلى مكان خال ليقوم بذلك. وحدث أن التلة التي وقف فوقها كانت تشرف على أرض كانت له
وباعها ليسدد ديونه. جلس هناك يحرق فيها ساعات، ثم فجأة قفز عن الأرض تتباه مشاعر حادة
ومرحة، لقد وجد الحل، كل هذه الأرض ستعود إليه ثانية. وبدأ يقوم بأعمال موفته في أطراف
المدينة، لقاء عدة بنسات، ودائماً يطلب من صاحب العمل أن يعطيه طعاماً كشرط عند العمل، لكي
يتجنب إنفاق أحرته. واقتصد نقوداً كافية ليشتري قليلاً من الماشية التي باعها وحقق ربحاً، وانتهى
الأمر بأن أستعاد كل أراضي التي فقدتها، وحين مات تحيلاً كانت ثروته في البنك كبيرة.

الجزء المهم في قصته، هو الجزء الذي لا نعرفه: ما الذي دار في ذهنه وهو جالس فوق التل؟

كل شخصيته قد تغيرت فجأة، كان سكيراً وضائعاً، والإنتحار هو النتيجة المنطقية لهذا الموقف
السلبى تجاه الحياة: والآن يُدرك فجأة أنه يمتلك إرادة وحرية وعليه أن يستخدمهما.

من الطبيعي للحيوانات أن تكون سلبية، خاصة الأليفة منها، التي تنظر لسيدها كإله يتحكم بعصيرها.

ولعدة قرون ماضية كان معظم الرجال سلبين للسبب نفسه علمتهم الكنيسة أن عملهم الوحيد
هو إطاعة أوامر الدين المسيحي. وحين بدأ ينهر الدين المسيحي، ظلت السلبية التي لازمتهم ملايين
السنين، لاصقة بهم، لم يستطع أن يلقي بها الإنسان بسهولة، ومال إلى الضياع في الحياة.

أحد الأسباب الرئيسية لهذا الموقف السلبي المستسلم النائم، هو صعوبة السيطرة على عواطفنا، خاصة في مرحلة الشباب. فالحياة سلسلة من العواصف العاطفية، واعتدنا أن نستسلم لهذه العواصف بالضبط كما نقبل حالة الطقس.. وعند منتصف العمر، ندرك أنه يمكننا السيطرة على هذا الجو الداخلي، لكن الوقت يكون متأخراً. لقد اعتدنا بشكل كبير على الاستسلام.

قد يقال إن الإنسان نادراً ما يواجه مآسي تجعله واعياً بحريته، والحالة التي ذكرتها عن الشاب الذي أصبح بخيلاً، حالة غير عادية، وبما أن الحياة رتيبة ومملة، فليس من المدهش أن نجد صعوبة في استخدام حريتنا، أو حتى ندرك أننا نمتلكها.

وأقول رداً على ذلك: من بين جميع الخبرات البشرية، الجنس هو الأقدر على إعطاء الإنسان معنى للحرية.

في بداية الحرب العالمية الثانية، كنت في التاسعة من عمري، واستطيع بوضوح استرجاع الإحساس بالإنارة والسعادة التي سببتها. لم تكن إنجئنا مستعدة للحرب، وكان هناك توقع بالهزيمة، ومع ذلك كان كل فرد أسعد مما كان عليه منذ سنوات.. لماذا؟

لأن التحدي المفاجئ جعل الناس يعون بحريتهم.

فجأة أصبحت الحياة مليئة بالإحتمالات المثيرة، وعرف الجنود أنهم قد لا يرجعون، لكنهم، على الأقل، يذهبون لمكان ما ليقوموا بعمل مهم.

طبعاً لا يوجد ما يمنعهم من أن يعيشوا حياة مثيرة وقت السلم، أي واحد منهم كان بإمكانه العمل على سفينة شحن، أو يذهب لتسلق الجبال، لكنهم سلبون جداً، ينقصهم الكثير من الخيال.

الجانحون الذين دمروا أحواض الزهور، يعبرون عن تمردهم ضد سلبيتهم وحياتهم المملة، إنها محاولة يائسة لإمتلاك حريتهم، لكنها محاولة ليئسة ذكية جداً لفرد لديه القدرة على التفكير، وهذا ينطبق على أي شخص وصل إلى هنا في قراءته... لا حاجة للحرب، لكي يعرف الناس حريتهم.

ولكي نفهم الجنس لابد أن ندرك أنه حرية صافية تقريباً. وهذا ينطبق بصفة خاصة على المراهقين والشباب. لأن كثافة الخبرة الجنسية في هذا السن لا يمكن استعادتها بعد ذلك. ولا أعني بالخبرة الجنسية الفعل الجنسي نفسه، ولكن كل العواطف التي تثيرها الأنثى في الرجل والعكس بالعكس.

إن الشباب المعاصر يمتلك حرية أكثر من أي شاب في التاريخ، وحين يدرك ذلك، ويعرف كيف يستخدم هذه الحرية، فسيكتشف أنه يستطيع تغيير العالم

كولن ولسون وأعماله

يُعتبر كولن ولسون من أكثر الكتاب الإنجليز شعبية، وأغزرهم إنتاجاً. ولد في ليسستر - إنجلترا سنة ١٩٣١، وترك المدرسة وهو في سن السادسة عشر. بعد سنوات من تنقله في عدة أعمال مختلفة، في مستودع للصوف ثم مختبر، ثم في مصنع بلاستيك، عكف على كتابة أول كتبه اللامتني ١٩٥٦، وقد لقي الكتاب استقبلاً نقدياً جيداً، وأصبح في فترة قصيرة من أكثر الكتب رواجاً. ومنذ ذلك الوقت كتب ولسون عشرات الكتب في الفلسفة والسحر والجريمة والجنس، بالإضافة إلى مجموعة من الروايات التي أكسبته شهرة عالمية. وقد ترجمت كتبه إلى عشرات اللغات ومن بينها العربية حيث تُرجم له أكثر من عشرين كتاباً.

وهذه قائمة ببعض أعماله:

أولاً: - الكتب

- | | |
|---------------------------------|------------------------------|
| ○ - الشعر والصوفية | ✖ اللامتني |
| ✖ القوى الخفية | ✖ دين وتمرّد |
| ○ - راسبوتين وسقوط آل رومانوف | - عصر الهزيمة |
| - فن الرواية | - قوة الحلم |
| ○ - الحاسة السادسة | ○ - أصول الدافع الجنسي |
| ✖ رحلة نحو البداية - سيرة ذاتية | ✖ ما بعد اللامتني |
| | ○ - موسوعة الألفاظ المستعصية |

وقد ترجمت هذه الكتب إلى اللغة العربية.

- | | |
|--|----------------------------------|
| - دائرة معارف القتل (بالاشتراك مع بات نيمان) | |
| - براندي الملعونين (مقالات في الموسيقى) | |
| - النسر وأبو مقص (مقالات عن الكتب والكتاب) | |
| - مقدمة لوجودية جديدة | - الباحثون عن النجوم - فلك |
| - سجل الجريمة | - قلعة فرانكنشتاين |
| - برنارد شو | - الولوج في العالم الداخلي للنفس |
| - طرق جديدة في علم النفس | - ضد سارتر |

- أسرار
- علم نفس الجريمة
- ✓ الجنس والشباب الذكي
- التاريخ الإجرامي للجنس البشري
- البحث عن ولهم رايش
- الحرب ضد النوم - فلسفة جوردينف
- سيد العالم السفلي - دراسة لأعمال يونج

ثانياً: روايات

- ٣ - طقوس في الظلام
- ٥ - ضياع في سوهو
- ٥ - الشك الضروري
- ٦ - القاتل (ترجمت إلى العربية بعنوان الحالم) - الإستحواذ
- إله المتاهة
- وقد ترجمت هذه الروايات إلى اللغة العربية.
- ٧ - القفص الزجاجي
- رجل بلا ظل (مذكرات جيرارد سورم الجنسية)
- طفيليات العقل
- عالم العناكب
- هامة الفضاء
- عالم العنف
- رواية راسبوتين
- زفريات العقل
- مقتل تلميذة
- حجر الفيلسوف
- الغرفة السوداء

فى هذا الكتاب

هذا المراهق أو الشاب يشبه رجلاً يكاد يموت عطشاً فى الصحراء ، رغبته فى الماء لا تحمل أى حب أو عطف ، كل ما يريد هو أن يشربه .

يميل الشباب إلى إبداء الخجل من قوة رغباتهم الجنسية ، وهم لا يعترفون بها من تلقاء أنفسهم أو يجعلونها واضحة للآخرين ، وما يجرى فى خيالهم يظل سرّاً طوال حياتهم . وفى اللحظة التى يتحدث فيها إلى فتاة ، فإن رغبته الجنسية تتراجع قليلاً حتى لو لم يشعر نحوها بالحنان أو بالرغبة فى حمايتها ، لكن عليه أن يتظاهر بذلك إذا أراد الفتاة ، يحاول أن يتصرف بشكل متحضر ، وإذا كان من النوع المرح فقد يتزوج صغيراً ، لأنه يجد رغبة الفتاة فى الزواج معقولة . وهو يرغب فى أن يرضيها ، وهكذا فإن توحش الرغبة الجوهري ، يغطى بكل أنواع الدوافع الأخرى بالإضافة إلى التقاليد الإجتماعية . ولكن لو أنصفنا فيجب أن نعترف بأن كل هذا التمثيل لا علاقة له برغبة الشاب ، لا يوجد رقة وحب فى شهية الذكر الجنسية ، أكثر مما يوجد فى شهيته من حب نحو طعام عشاء جيد .

والعلاقة الجنسية النموذجية لابد أن يكون فيها تناسب معقول من الرقة والرغبة الجنسية ، لكن ليس بالضرورة أن تكون هناك علاقة بين الرقة والرغبة .

لقد أصبحت روما حضارة لا تفكر إلا فى أشياء قليلة غير الجنس والحرب - مثلنا تماماً . مورست أشكال الانحراف الجنسى على نطاق واسع واعتُبرت أموراً عادية . لقد تزوج الأمبراطور "نيرون" بالفعل غلاماً أليسوه كفتاة فى احتفال كبير وأبهة فخمة ، لقد ارتكب الزنا بالمحرمات مع والدته بحثاً عن إثارة جنسية . وإن تاريخ الأباطرة "تيبيريوس" و "كاليجولا" و "نيرون" مملوء بتفاصيل قذرة من هذا النوع ، وأن معظم الترجمات الشعبية عن هؤلاء تترك أجزاء كبيرة من هذه الأحداث باللغة اللاتينية .

حين يدرس المؤرخون فى المستقبل عالم القرن العشرين ، سيلاحظون مثل هذا الانهيار الأخلاقى العجيب ، وسيرون فى كتب مثل "لوليتا" و "عشيق الليدى تشارلي" و "قانى هيل" وروايات جيمس بوند وغيرها ، وثائق مهمة لهذا الانهيار .

باختصار ، لا شك أن حضارتنا الغربية قد وصلت إلى المرحلة التى كانت عليها روما منذ ألفى سنة